آرشي أُوغوستاين

الحرب على الإسلام

THE WAR AGAINST GOD

ترجمة محمد الشماع

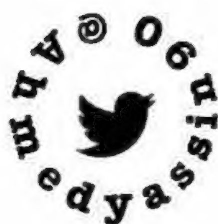
مراجعة د. منذر الحايك

تصوير

أحمد ياسين






@Ahmedyassin90



نحو فكر

حضاري متجدد

الكتاب: الحرب على الإسلام

المؤلف: أرشي أوغسطين

ترجمة: محمد الشماع



الإصدار الأول 2011 م

عدد النسخ: 1000/ عدد الصفحات: 128

تصميم الغلاف: جمال الأبطح

التدقيق اللغوي: مظهر اللحام

الإشراف العام: يزن يعقوب /جـوال 181 418 933 00963

الإخراج الفني: فؤاد يعقوب /جـوال 764 902 933 00963

لدار

صفحات للدراسات والنشر

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 3397

هـاتـف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

www.darsafahat.com

info@darsafahat.com

الترقيم الدولي ISBN

978-9933-402-66-2



آرشي أوغسطين

الحرب على الإسلام

ترجمة: محمد الشماع

مراجعة: د. منذر الحايك

عنوان الكتاب بلغته الأصلية:

THE WAR

AGAINST GOD

by Archie Augustin

المحتويات


@Ahmedyassin90

مقدمة

أنا روماني كاثوليكي، وأعمل كمحامٍ في محكمة الجنايات في جنوب إفريقيا، وقد أجبرتني مذبحة البلقان، التي ارتكبت ضد المسلمين آنذاك على تأليف كتابي الأول، وعنوانه «دفاعاً عن الجهاد»، وفي هذا الكتاب حذّرت من التهديد الغربي الوشيك للمسلمين في أنحاء العالم، وبعد وقت قصير أنهيت أيضاً كتابي الثاني «تفجيرات انتحارية أم استشهاد»، حيث عالجت ظاهرةً، لم تكن في ذلك الوقت حدثاً يومياً كما هي الآن.

ولم تكن هذه الأفكار نتيجة تكهناتٍ أو توقعاتٍ ما، بل هي محصلةٌ لقراءةٍ شخصية للقرآن الكريم، إذاً فإن تلك الأفكار واضحة من نص القرآن نفسه.

عندما جرى احتلال أفغانستان، وبدأ التحالف غزوه للعراق، قمت بقراءة متمعنة أخرى لنص القرآن، وأردت أن أعرف إذا كان الإسلام سوف يواجه مصير المسيحية نفسه بضغط العلمانية عليه، وإذا كان الإسلام سيحيّد، على أنه فقط تعاليم دينية وأخلاقية، أم لا، واكتشفت أنّ القرآن الكريم شديد الوضوح، وعديم الضبابية في عرضه للأحداث الماضية والحالية في قصة الجنس البشري المستمرة، ووجدت أيضاً أنه من السهل ربط الآيات القرآنية بالحال العالمي الراهن، وأكثر من هذا، فهم المستقبل، الذي ينتظر المؤمنين وغير المؤمنين على السواء.

وقد توصلت إلى استنتاجات محددة، ليست محصلة دراسة أفكار وآراء علماء السياسة، لكنها كانت فقط نتيجةً لقراءتي للقرآن الكريم.

يشير المعلقون عادة إلى تدمير برجي التجارة العالمية في نيويورك بأنه مرحلة التغيير الرئيسة الوحيدة في السياسة الخارجية الأمريكية، فقد بدأت مذاك الولايات المتحدة رسمياً بحربها على «الإرهاب» بعد هذه

الكارثة، وبعد أن كانت نظريات المؤامرة تبرئ المسلمين فقد جرى إثباتها عليهم، وهذا ما يترك الباحثين يتفكرون في دوافع ارتكاب هذا العمل، ويدّعي بعضهم أن الولايات المتحدة كانت محتاجة إلى ذريعة للبدء بغزوها لأفغانستان والعراق، والسعي وراء تحقيق مغامراتها، وهكذا، فإن صنع هذه الذريعة أو كبش الفداء، الذي تمثل بما دعي «الإرهاب الإسلامي»، بشّرَ بحقبة جديدة من استخدام القوة الغاشمة وأساليب الدعاية القذرة.

ويظن بأن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش، أو «قوة ثالثة»، كان همها تحقيق الأرباح والوصول إلى منافذ السيطرة، هي من ساهمت في هذه الكارثة، وبغض النظر عن الإغراءات المعروفة المتمثلة بالمال والسلطة، فإني أجد من الصعوبة بمكان أن أقبل نظرية أنّ بعض الأشخاص المتمتعين أصلاً بالغنى وأسباب النجاح، قد انحطوا إلى مستوى وضيع من أجل إحداث كذبة مثل هذه من دون أن يكون لديهم برنامج مستقبلي أكثر طموحاً، ولم يكن هذا الحدث طبعاً كافياً لغزو أفغانستان، فقد كان بن لادن والقاعدة سبباً كافياً لذلك، أما العراق فقد كان هناك أيضاً عوامل مثل صدام حسين وأسلحة الدمار الشامل، ولا أظن أيضاً بأن هذه الكذبة كانت ضرورية لكسب دعم الشعب الأمريكي أو الحصول على الدعم الدولي فيما يتعلق بنشر القوات المسلحة، فبغضّ النظر عن منظمة الأمم المتحدة، نفّذت قوات التحالف الأمريكية البريطانية ما يحلو لها، ولم يكن هناك أي سبب في هذا الوقت تحديداً لكي تشك الدولتان الغازيتان بقدرتهما العسكرية على الغزو واحتلال هذه المناطق.

ونحن ندّعي العقلانية عندما نرفض، أو نخفق، أو نتغاضى عن تدارس محتوى القرآن الكريم من أجل الوصول إلى الحكمة في مثل هذه الأمور، وخلال تفحص حالة القضايا الدولية بما يربطها بالقرآن

الكريم، فإن ماضي تطوير السياسات الدولية وحاضرها ومستقبلها يصبح واضحاً جداً.

وعادة ما نقوم بالمبالغة بتبسيط الأمور عبر ملاحظة عاملين على صعيد الأحداث الدولية الراهنة، وهما مذبحة المسلمين وسرقة أراضيهم وقدراتهم، ومن هذا المنظور، فإننا نعد هذه الأفعال هي «الاستعمار الجديد».

وإن هذا «الاستعمار الجديد» هو فقط جزء من الصورة الإجمالية، وفي رأي متجرد، فهذا المصطلح الجديد هو إحدى الوسائل المستخدمة في الوصول إلى البرنامج والأهداف الحقيقية لأعداء المسلمين.

ما هذا البرنامج إذاً؟

إنّ الأحداث والعوامل التي تلت كانت واضحة، وقد أظهرت البرنامج خلال ما يلي:

لقد قُصف المسلمون، وقُتلوا، واغتصبت نساؤهم، واحتلّت أراضيهم، وأصبحت الديمقراطيات المصممة على النمط الغربي هي الممكنة، كما أضحت الإصلاحات الاجتماعية التحررية، وعلى نحو خاص تحرير النساء المسلمات من الاستعباد المزعوم للعادات والمبادئ الرئيسة، هي الهدف الأساسي من هذه العملية.

إذاً يجب على هذه العادات والمبادئ الرئيسة، التي تشكل بنية المجتمع الإسلامي أن تتهدم، وهذا هو الهدف الأساسي.

وتجلب الديمقراطية معها نمط حياة رأسمالية غربية، بكل ما تُعرف بها من عمليات إقراض الأموال والشيطان الاقتصادي الأكبر المتمثل في الربا.

وعلى نحو بطيء ساهم إنشاء المدارس العلمانية في إضعاف تأثير المدارس الإسلامية، التي يأخذ التعليم الإسلامي فيها حيز الاهتمام

الأكبر. وهكذا فإن نظام التعليم العلماني قد أصبح موضع التركيز، حيث سعى الغرب إلى إحلال هذا النظام محل التعليم الإسلامي.

لذلك، فإنّ المعارضة الشديدة لسلوكياتٍ مثل الزنا، وممارسة الجنس قبل الزواج، والإجهاض، لن تكون مكروهة وحسب، ولكنّ معارضة مثل هذا التحرر الجديد سوف تعد مخالفة للقانون بالقوانين الجديدة، التي سوف تفرض في تلك الدول، أمّا حقوق المرأة والطفل فسوف يجري تطبيقها وفقاً للتعاليم الغربية، ومع انهيار الرقابة لابدّ أنّ انحلال الأخلاق الغربي سيكون واضحاً للعيان في حوانيت الكتب، وشاشات التلفاز.

إذاً، أي مقاومة للمعايير الجديدة سوف تعد «إرهاباً»، وليس حرباً، أما الدين الإسلامي معتقداً وطريقة حياة فستجري إعاقته، وهذا هو الهدف المطلوب.

وبناء على ذلك فالحرب ضد المسلمين ليست حرباً ضد شخص المسلم أو ممتلكاته فقط ، لكنها حربٌ ضد معتقده وإيمانه، وهي أيضاً تدميرٌ للأساسات التي تدعم ممارسة هذا المعتقد المستهدف، ولذلك فإنّ «علمنة» الشعب المسلم هي الغاية، وإنّ «اغتيال الإسلام»، إن صحّ الاسم، هو البرنامج.

ويدرك الغربي أنّ المسلم كونه إنساناً يتصرف وفقاً لحرية إرادته الشخصية، ويؤمن الغربي أيضاً بأن الدعاية والقانون العلماني الدولي لديه يدعمان السيطرة على الدول الأخرى ذات السيادة، والقيام فيها بعمليات القتل والإبادة الجماعية، واستخدام القوة المفرطة، والتعذيب، وإساءة تفسير القرآن، وتدنيسه، وهذه كلها عوامل من شأنها أن تؤثر في حرية الإرادة الشخصية.

لكن الذي يخفق الغربي في فهمه، على أي حال، هو أنه من غير الممكن أن نترك الله سبحانه خارج تلك المعادلة، فالبرنامج الحالي، بغض

النظر عن تصنيفه أنه برنامج التحالف الأمريكي أو البرنامج الغربي لأعداء الإسلام، هو في تحليله الأخير وفق القرآن الكريم برنامجٌ يقترح الحرب ضد الـلـه.

وقد كشف القرآن الكريم عن برنامج هؤلاء وتخطيطهم، فالتمرد ضد أنبياء الـلـه ورسله قد جرى عرضه، وجرى أيضاً الإعلان عن عواقب هذا التمرد في عبارات واضحة وجلية.

وفي النهاية فأنا مقتنع تماماً بأن هزيمة الإسلام معتقداً، وهزيمة المسلمين غير ممكنة أبداً، وسواء أكان القارئ يؤمن بالـلـه أم لا، فهناك عامل شديد الوضوح، وهو أن إرشاد القرآن الكريم وتأثيره سوف يحثّ على مقاومة جميع أنماط التخويف والقوة العسكرية، ولن ينجح أي مستوى عنف نفسي أو جسدي في إشغال المسلم عن مصيره الحتمي، ولن تقنع أي دعاية غربية المسيحيين المخلصين بأن الحرب ضد الإسلام يمكن تسويفها، وسوف يبدأ المواطن العادي في العالم بوضع اللوم على قادته بسبب القلق من الهجمات «الإرهابية» الممكنة، والخوف من الطيران، أو قضاء العطلات في الخارج، وسوف يستمر موت الجنود الغربيين، وسيحتاج قادتهم ورؤساء وزرائهم إلى تغيير سياساتهم الحالية، أما قادة الجيوش الغربية فسوف يجبرون على تغيير سياساتهم العدوانية وإرجاع الجنود إلى بلادهم.

وقد تابعتُ عن كثب الدسائس الغربية والأمريكية على نحو خاص، ورأيت همجية القلوب الغربية، وشهدت نياتهم العنصرية الوضيعة والشريرة، وراقبت أفعالهم القاسية والعنيفة، ورأيت في وسائل الإعلام الغربية حجم غرور آلات حربهم، ولاحظت كيف قتلت تلك الآلات المسلمين بحقدٍ قاسٍ.

وتعجّبت أيضاً كيف أن القادة الغربيين أو أولئك الذين صوّتوا لهم يعدّون أنفسهم مسيحيين أو علمانيين أخلاقيين.

وراقبت كيف أوغر المسلم صدره ضد أخيه المسلم عبر خديعة فرّق تسد، وخاصة عندما نرى الخلاف العميق بين منظمتي فتح وحماس، حيث يقف بقية العالم ضد حماس، التي جرى انتخابها ديمقراطياً، وكيف كانت الفوضى التامة نتاج الحرب الدولية على العراق.

لكن التزاماً بمصداقيتي الاحترافية، وديني المسيحي، وفهمي لمصير المؤمنين وغير المؤمنين، كما يوضحه القرآن الكريم، فقد تمعّنت في أفغانستان والعراق وفلسطين، كما هي اليوم، وذلك بعيداً عن التحيز، وتحت غيوم الدعاية الغربية، وفي أزقة شوارعها، التي تملؤها الحروب، وخلال لعلعة العيارات النارية والفوضى العارمة، رأيت قوى مخلصة لله وللإنسانية ملتزمة برنامج مقاومةٍ فكرياً وروحانياً.

إنّ النص الذي أقتبس منه هو القرآن الكريم، كما ترجمه عبد الله يوسف علي إلى اللغة الانكليزية، كما أشير إلى الاقتباسات من القرآن خلال الإشارة إلى السورة، ورقم الآية الكريمتين، مثل «سورة البقرة، الآية 213» وعلى مدار هذا الكتاب قمت بأخذ اقتباسات معينة أخرى من الإنجيل، وربما ترنّ هذه الاقتباسات في أودية الدموع مثل الصدى نفسه، الذي تحدثه آيات القرآن الكريم.

وإني لا أعتذر هنا عن الكتابة بكل صراحة، لأن الحقيقة يجب ألا تكون مؤذية، بل على خلاف ذلك، فالحقيقة يمكنها أن تشفي الأوجاع.

آرشي أوغسطين

جنوب إفريقيا- 2008م.

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾.

(البقرة: 217).


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

الثروة والقوة والتكبّر:

يحذّرنا القرآن الكريم بعبارات واضحة وصريحة من أن رفض الاعتراف بمبدأ «إله واحد، وشعب واحد»، والسعي فقط وراء المصالح الشخصية أو الجماعية أو الوطنية مع احتقار كل ما عدا ذلك سوف يؤدي إلى الهلاك:

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

(سورة النحل، الآية 22).

وهكذا، فإن رفض الإيمان بوجود الإله الواحد الذي هو إله جميع الخلق، ورفض الإيمان بيوم القيامة يؤدي بالنتيجة إلى التكبر، وإن محاولة التملق أو المنافقة، وكأننا مؤمنون، لن يحمينا في النتيجة:

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ اللـه يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (سورة النحل، الآية 23).

(13*مِنَ السَّمَاوَاتِ نَظَرَ الرَّبُّ. رَأَى جَمِيعَ بَنِي الْبَشَرِ. 14*مِنْ مَكَانِ سُكْنَاهُ تَطَلَّعَ إِلَى جَمِيعِ سُكَّانِ الأَرْضِ. 15*الْمُصَوِّرُ قُلُوبَهُمْ جَمِيعاً الْمُنْتَبِهُ إِلَى كُلِّ أَعْمَالِهِمْ). - المزمور 33: 13-15.

إذاً فالإله يعلم كل شيء.

إنّ الدعاية الغربية التي تتغير مع تغير الأحوال المسيطرة، والتي تعرض صور شعب ضعيف مطواع وسهل الانخداع سوف تستمر بالإخفاق، حتى لو بدأت بذلك منذ شهر آذار عام 2003م.

لقد أخفقت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في إقناع العالم على نحو كبير بأن غزو العراق كان هدفه إزالة أسلحة الدمار الشامل أو تحرير شعب العراق، ولم يجرِ استقبال قواتهم بالورود والموسيقى الفرحة، بل بالأحجار والرصاص والقنابل المزروعة على الطرق، لقد أخفقوا في تخطيطهم، وقللوا من أهمية الحقيقة، وكشفوا نفاقهم ونيّاتهم الفاسدة.

تذكرت حزني للاغتيالات التي حصلت لعائلة كينيدي، ففي جنوب إفريقيا، كنا نتطلع إلى الديمقراطيين لإنقاذنا من نظام التمييز العنصري والسياسات الكريهة للتفرقة العنصرية، التي شكلت كرهاً كبيراً فعلاً، ولقد شهدنا عواصف الرصاص، التي استهدفت السود في شوارع «شارب فيل» و«لانغا» وبلداتهما، وكنا خائفين على أولئك المعتقلين من دون محاكمة، وقد جرى تصنيفنا بأننا شيوعيون، نهدد أسلوب الحياة المسيحي للحكام البيض وقبائلهم من المهاجرين والأوروبيين المشردين، وقد سمعت بوبي كينيدي في «دوربان» في جنوب إفريقيا، وقابلته في أثناء حوار في قاعة جامعة «ناتال»، وصافحتُ يد السيناتور الأمريكي، الذي كان من المتوقع كثيراً أن يصبح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وبطلبٍ منه أخذنا نردد أغنية الحرية العالمية «سوف ننتصر»، وكان هذا السيناتور مقتنعاً على نحو حماسي بأن اضطهاد الناس الملونين كان عملاً خاطئاً، وكان مصمّماً على أن يرانا محررين، وأراد أن يشهد انهيار نظام التمييز العنصري، ووعد بقدوم اليوم الذي سوف يدمر به الـلـه هذا النظام.

والأمر الأكثر أهمية هنا هو أن بوبي كينيدي عدّ أن جميع أنماط التمييز والتحيز خاطئة على نحو كامل.

لماذا إذاً أصبحت الولايات المتحدة اليوم داعيةً للحرب وساعيةً إلى إرضاء ذاتها وإرضاء مصالح بعض الجماعات الصغيرة؟، لماذا قامت بغزو

العراق في تحدٍ واضح لرأي المجتمع الدولي وفي انتهاك صارخ للقانون الدولي؟، لِمَ أصبح المسلمون هدف الحقد الإعلامي وعرضةً للاتهامات المشكوك فيها؟، أين العالم الجميل الذي يمثله لويس في «ساتكمو»؟، أين ذاك الحلم والطموح والحافز والاتجاه؟.

لقد فُقِد!، لقد استُبدل بهذا الحلم مغامرة جديدة ومغايرة، وتمّت حياكة الخطط الشريرة بتفوق دولي وبإيعاز من السياسات الأنانية والسيطرة الوحشية، وقد سيطر الوحش الجديد على أراضي بلاد ما بين النهرين وأحالها إلى الدمار، وقتل العجائز والشباب والأطفال وسحقهم وشوههم، وترك الجميع للعيش من دون قانون إلا النفط طبعاً، كما جُرّدت المتاحف تماماً عن شواهدها وقطعها التاريخية، التي شهدت على حضارةٍ كانت يوماً ما حيّة وعصرية، عندما كان الغرب يعيش همجيةً، تشبه همجيته اليوم.

إنّ دمار العراق السادي لايزال حدثاً يشهد على حالة الصدمة وعدم التصديق، ومن السخرية أن نرى استيراد التصاميم المعمارية الإغريقية، لتوضع في مباني الحكومة الحالية في الوقت الذي لا تملك فيه الولايات المتحدة شيئاً، ولو ضئيلاً، من الجمال الفني لليونان القديمة، وليس عجباً أن نرى رئيس الوزراء البريطاني بلير، الذي كان طرفاً في التحالف قد واجه غضب المتظاهرين المعارضين للحرب، عندما اقتحموا السفارة البريطانية في العاصمة أثينا، حيث كان يحضر اجتماعاً تاريخياً للاتحاد الأوروبي لإقرار انضمام عشر أعضاء جدد إليه، ومن السخرية أيضاً أن نرى أن فرنسا، التي أهدت إلى الولايات المتحدة تمثال الحرية الشهير، كانت هي المنتقد الأكبر لقيام أمريكا بغزو دولة العراق ذات السيادة.

أنا أريد، وأنت تريد، والله يفعل ما يريد، كم من مرة سمعنا تلك الكلمات وقلناها، ولذلك عندما تؤمن الولايات المتحدة بأنها تقرر السياسات الرئيسة في العالم، وتشكل الحكومات أو تفككها، فإن

الاضطرابات نفسها التي تسببها في لعبة الشطرنج الدولية لها عواقب أيضاً، لأن هناك الكثير من اللاعبين على الطاولة، حتى ولو كانوا صغاراً، واللعب ضد العالم مختلف تماماً عن اللعب مع العالم، واللعب مع بعضهم وضد بعضهم الآخر هو معضلة على نحو متساوٍ، خاصة عندما تلعب للفوز بحصة على الطاولة الدولية.

ويأتي التكبر عادة، عندما يكون المرء مغروراً بثروته ومكاسبه المادية، لكن ماذا عن القوة العسكرية؟، إنها تشكل الدرع الحامية لكل تلك المكاسب المادية، فهي من جهة تتشكل عند الغنى والثروة، ومن جهة أخرى فهي إغراء قوي، تقود الأمم مثل سحر شرير إلى رغبة شديدة لامتلاك القوة من أجل القوة وتحقيق أكبر المكاسب.

يجني محرك الدمى بعض الأرباح من صنعته، وهو يحترف التسلية، ويستطيع أن ينتقد أيضاً، ويدلي بتعليقات سياسية، ويغير آراء الناس، ويخلق النزاعات، ويتلاعب بدُماه، ليخدم برنامجه الشخصي، ويمكن القوة العظمى أن تجعل الدول محركة للأحداث العالمية، وهكذا، فإن الولايات المتحدة بإدارة الرئيس بوش أصبحت محرّك دمى شرساً، وساهمت في خلق الاضطرابات وانتهاك سيادة الدول، التي أصبحت بمنزلة الدمى، وذلك لتحقق غرورها الشخصي، وتصل إلى السلطة المطلقة، التي يفرضها محرك الدمى الرئيس.

إنّ العظمة المكتسبة والمبنية على سيطرة السلاح والحرب هي عظمة مشكوك فيها، فهي ليست مبنية على قوة الشخصية والصلابة الحقيقية، بل على أساس قوة أسلحة الدمار الشامل، ولا تملك الولايات المتحدة أفضل الجنود في العالم، بل هي تملك في المقابل أفضل المعدات التكنولوجية المخصصة للحرب في العالم، وتعد قوتها الجوية مدمرة جداً، وإنّ عواقب قنابلها كارثية أيضاً، كما جُهّزت دباباتها الهجومية بالأسلحة المحظورة، كما أن جنودها عنيفون، فهم بشر نُزِعوا من الرحمة، وجرى توجيههم لتشغيل آلات القتل الحربية.

لكن، وبينما تتفاخر الولايات المتحدة بأرباحها المادية الهائلة، فلاشكّ أن موقفها المغرور والمتكبر يجب أن يُجابَه بعدم الصمت والتحدي، ولم تحشد الولايات المتحدة قط من قبل مثل هذه المعارضة الشديدة ضدها عالمياً، ولم تقم أيضاً بتوحيد المسلمين في العالم ضدها على هذا النحو، كما لم يتظاهر قط من قبل كلٌّ من المسيحيين والهندوس والناس من جميع الخلفيات الدينية وغير الدينية بهذه الأعداد الضخمة للاحتجاج على غزوٍ ما، كما فعلوا مع غزو العراق.

وفي ظل غمامة الغرور والتكبر هذه تؤمن الولايات المتحدة بأنه مادام العراق واحتياطاته النفطية أصبحت تحت سيطرتها الآن، فإنّ تدفق الثروات قد بدأ للتو مع وجود حقول نفط جديدة، لا تزال تنتظر السيطرة عليها باسم الحرب على الإرهاب أو التحرير، ويبقى حلم أمريكا بالسيطرة على العالم، والذي كان يواجه عائقاً من الاتحاد السوفيتي السابق فترة طويلة، حقيقةً واقعية مهما كانت مشوهة.

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾،(سورة الروم، الآية 41)، إنّ القرآن شديد الوضوح في حقيقة أنّ المادية هي أحد أهم منابع الشر الحاصل.

وفي سورة الكهف (من الآية 32 إلى الآية 45) نقرأ حكايةً عن رجلين، فرجل أعطاه الـلـه حدائق العنب والتمر والنخيل وحقول الذرة ونهراً، والآخر لم يمتلك القدر نفسه، وقد أثمرت حدائق الأول بوفرة:

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا {34} وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ، (سورة الكهف، الآيات 34-35).

لكنّ الرجل الثاني الذي لم يمتلك كثيراً قال:

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾، (سورة الكهف، الآية 40).

وهذا ما حدث، فقد وقعت الكارثة على الرجل الأول، الذي كان غنياً ومتكبراً: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا {42} وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللـه وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾، (سورة الكهف، الآيات 42-43).

ألا تُحدِث هذه الآية الأخيرة صدى في التجربة التي نعيشها، وكأنها عبارة حقيقية ومنطقية؟، إنّ العالم كله يشعر الآن بالعواقب الاقتصادية لكارثة برجي التجارة العالمية في نيويورك.

ومنذ آذار عام 2003م، بدأ الاقتصاد الأمريكي بالتهاوي، كما بدأ اقتصاد الدول الغربية بالتدهور أيضاً، وظلّت خطوط الطيران المدنية راقدة في أراضيها، بينما كانت الطائرات الحربية والقاذفات تحلّق في سماء بغداد، وفي آب من عام 2006م جرى الكشف عن مؤامرة مزعومة في بريطانيا، كان هدفها تخريب الطائرات الأمريكية والبريطانية.

نعم، يمكن الأحوال أن تتغير وتتبدل من خلال العوامل المؤثرة الكثيرة، التي تؤثر في صنّاع القرار، ومعروف أن القوة لا تولد إلا القوة المجابهة، سواء كانت اقتصادية أم سياسية أم أي شيء آخر، وتنمو المقاومة من الداخل والخارج، ففي آذار عام 2003م قامت فرنسا وروسيا وألمانيا، اللواتي كن سابقاً دولاً حليفة، بقطع هذا التحالف، وابتعدت عن الطموحات الأمريكية في العراق، وتراجع أولئك المنشقون في جبهة الأقوياء بدافع من ضميرهم وخوفاً من المعايير الحضارية ومن عواقب المقاومة، كما قام الفلسطينيون الذين لم يكن لديهم شيء ليخسروه

بتكثيف جهودهم للضغط على إسرائيل، واستعرض حزب الـلـه عضلاته على الحدود مع إسرائيل، وحذّرت كوريا الشمالية الأمم المتحدة والولايات المتحدة بأنها سوف تضطر إلى الدفاع عن نفسها في ظل الاعتداءات الأمريكية، وأخيراً دانت الدول غير المتحالفة، والتي زاد عددها على المئة، الهجوم الأمريكي البريطاني على العراق.

وشهد حزيران من عام 2003م تلميحات خبيثة، صدرت من الإدارة الأمريكية برئاسة بوش ضد إيران، ووجدت إيران نفسها تدين الانتقادات الأمريكية، أما الولايات المتحدة فقد استمرت في سعيها إلى إصلاح الشرخ السياسي مع أوروبا، وهكذا وقفت فرنسا وأمريكا على أنهما الطرفان المتصالحان، لكن لم يعبّر رئيسا البلدين عن أي إشارة تدل على تصالحهما الفعلي.

لقد أصبحت الولايات المتحدة أمّة منبوذة مثل جنوب إفريقيا العنصرية سابقاً، وهدّد العراق بأنه في حال الهجوم عليه سوف ينشر الحرب إلى أطراف العالم أجمع في «الجو والبر والبحر»، وحذّرت روسيا تحديداً من أنّ هذا الهجوم المقترح على العراق سوف يشجع على «إرهاب» أكبر، وليس منعه، هل كانت ستصبح حرباً ضد الإرهاب أم حرباً استنزافية؟، لقد كان العالم مستعداً لتقبّل النظرة الثانية، ماعدا الولايات المتحدة.

وهاهي بريطانيا مستهدفة في تركيا في تشرين الثاني عام 2003م، كما شهد عام 2006م هجوماً آخر على السياح في تركيا، وانضم الجنود الإيطاليون إلى قائمة الموتى في العراق، وبلغ عدد الهجمات على الجنود الأمريكيين 35 هجوماً يومياً، رافعة بذلك حصيلة القتلى الأمريكيين في العراق على نحو مطرد، حيث تجاوزت في آب عام 2005م ألفي قتيل، وعدداً لا يحصى من الجرحى، وعادة ما تتجاهل وسائل الإعلام الغربية تحديث أرقامها، لكن مع حلول عام 2008م جرى شحن أكثر من 4000 جثة إلى الولايات المتحدة جواً، ما يشير إلى تلقي هذا المشروع ضربة موجعة.

ومع قدوم شهر آب عام 2006م، أصبح العراق غارقاً في مستنقع عنف جدّ خطير، وخاصة خلال الصراع الديني الطائفي، الذي ترافق مع المقاومة ضد احتلال قوات التحالف، وقد بقيت القوات الأمريكية والبريطانية والنظام العراقي، الذي ولد بمباركة الخيانات الأمريكية، غير قادرة على احتلال العراق على نحو قوي.

ومع قوة الدعاية الأمريكية صُورت الولايات المتحدة وبريطانيا دولاً مثيرة للحروب، كان غرضها من غزو العراق السيطرة على مصادر النفط فيه، ويُصوّر تحرير العراق بأنه عذر لوضع حكومة عراقية موالية لأمريكا، حيث يكون الشعب العراقي آخر اهتماماتها، وقد أخفق سيناريو أسلحة الدمار الشامل في توليد الشك في وجودها، واستنتجت شعوب العالم أن الولايات المتحدة الأمريكية هي من ولّدت هذا الشك، وليس العراق، فقد أخفق مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة في العثور على أي أسلحة للدمار الشامل، ومع ذلك نجد بلير وهو يصرخ أمام مجلس الوزراء البريطاني قائلاً: «هذه حقيقة، وكلنا يعلم بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل»، وهذا ما تحوّل الآن إلى صوت أخذ يقع على مسامع الآذان الصمّاء للمجتمع الدولي، وفي تموز عام 2003م تعرض بلير لانتقادات شديدة في البرلمان البريطاني بسبب الاتهامات بتزييف التقارير الاستخباراتية، التي جرى تقديمها لتشجيع قضية الحرب ضد العراق، وفي عام 2005م أدرك العالم كله كذب الادعاءات البريطانية أن العراق كان لديه القدرة على إنتاج صواريخ كيميائية في غضون 45 دقيقة، وكان من معروفاً أنه حتى قبل بدء الغزو من الأراضي الكويتية مدة طويلة سبقت وصول القوات الغازية إلى بغداد، كان بوسع صدام حسين أن يدمر هذه القوات فور انتشارها في الكويت، لو امتلك تلك القدرات فعلاً، لا يستطيع أي حاكم سياسي أن يعِدَ جنوده ببساطة المهمة، إذا كان مؤمناً بالدعايات الزائفة التي ينشرها، وهكذا نستطيع أن نستنتج أن بريطانيا

والولايات المتحدة كانتا على علم تامٍ بأن العراق لم يمتلك أي قدرة صاروخية حقيقية، وقد ثبت زيف ادعاءات قوات التحالف حتى قبل أن يطأ أي جندي الأراضي العراقية، إذاً مع حلول عام 2006م خرج بلير من المعادلة، وأطاح الديمقراطيون بالجمهوريين في الانتخابات الأمريكية، وأصبح بلير في عام 2007م في عداد السياسيين المنسيين.

الكل يعلم الآن بأن الحملة على العراق كانت للسيطرة على الحقول النفطية العراقية، أما ما يتعلق بالممارسات الاقتصادية الجائرة، ومنها الطرق الخرافية المستخدمة لتحقيق التفوق الاقتصادي، يخبرنا القرآن الكريم عن أهل الحديقة، الذين قرروا على نحو غير عادل جمع ثمار الحديقة في الصباح على حساب الفقراء والضعفاء:

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾، (سورة القلم، الآية 24)

إنّ طمع القوات الغازية لم يحسب أي حساب للفقراء، أما السياسات المغرورة التي وصلت إلى إقصاء كل مصالح الآخرين فهي مذكورة بإسهاب في الآية الكريمة السابقة، فالسياسات الاستعمارية في الماضي والحاضر مبنية على محاولة حصد كل ثمار الحديقة على حساب بقية دول العالم أجمع، لقد تجاهل «أهل الحديقة» مسؤوليتهم أمام الـلـه وأمام الجنس البشري.

لكن الـلـه سبحانه يملك خططاً وطرقاً أخرى:

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ {19} فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، (سورة القلم، الآيات 19-20) ، وفي الصباح التالي، وأمام هذا الخراب الذي وقع، أدرك أهل الحديقة أخطاءهم قائلين:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾، (سورة القلم، الآية 29) .

(38*إِنْ كَانَتْ أَرْضِي قَدْ صَرَخَتْ عَلَيَّ وَتَبَاكَتْ أَتْلاَمُهَا جَمِيعاً. 39*إِنْ كُنْتُ قَدْ أَكَلْتُ غَلَّتَهَا بِلاَ فِضَّةٍ أَوْ أَطْفَأْتُ أَنْفُسَ أَصْحَابِهَا. 40*فَعِوَضَ الْحِنْطَةِ لِيَنْبُتْ شَوْكٌ وَبَدَلَ الشَّعِيرِ زَوَانٌ). - أيوب 31: 38 / 40.

إنّ قصص الحدائق تلك هي مثال واضح للعيان عن أفعال وممارسات الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تتهمان بالاستعمار الاقتصادي، والاستخدام المفرط للقوة الغاشمة والمتطرفة، وإرهاب دول العالم وتخويفه، وخاصة ارتكاب جرائم بحق الشعوب، التي تنحدر من أصول غير أوروبية، والشعوب المسلمة، وعلى أي حال، متى سوف تدرك هاتان الدولتان الأخطار التي ترتكبانها، وتعلنان أمام العالم: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾؟، هل سيحدث هذا فقط عندما تصبح الولايات المتحدة سياسياً واقتصادياً أرضاً «كالصريم»، حيث «تنمو الأعشاب الضارة والشوك»؟، لقد عاش الاقتصاد الأمريكي انكماشاً اقتصادياً في عام 2008م، وزادت أسعار النفط المرتفعة كلفة الغذاء عالمياً، وأصبح الرئيس الأمريكي بوش، الذي رفض المخاوف التي أبداها شركاؤه من دول الشرق الأوسط، التي لم تبدِ معارضة لغزو العراق، في موقف حرج، حيث وجب عليه أن يتملق تلك الدول، لكي تزيد إنتاجها النفطي، حتى تنخفض أسعار النفط، وقد واجه بوش اتهامات بأن الإنتاج كان كافياً، ولكن شركات النفط أخذت تتلاعب بالأسعار، واستنكر كريس هاني، وهو عضو الكونغرس الوطني الإفريقي الذي جرى اغتياله، التلاعب غير المتناهي بالأسعار، وشجب «الرأسمالية الوحشية»، وتعاني جنوب إفريقيا اليوم، وهي بلد هاني المحبوب، غلاء المعيشة بسبب صعود أسعار النفط المطرد.

يحذّر القرآن الكريم من المكاسب التي يجري الحصول عليها بطرق غير مشروعة، مؤكداً أن تلك المكاسب ليست أرباحاً حقيقية لأصحابها،

ويعِد القرآن الكريم بأن الصدقات، التي تقدم لوجه الـلـه تتضاعف قيمتها، وتزيد أيضاً قيمة أصول أموال المتصدقين.

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ الـلـه وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الـلـه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾، (سورة الروم، الآية 39) .

إنّ الاستعمار الاقتصادي، الذي يتحقق بالصراعات والمكائد، لا يمكن أن يخدم المحتل، ولن يحقق القيمة الاقتصادية للبضائع والمواد المسلوبة ربحاً للمغتصب، ربما قد تفوز آلة الحرب في النهاية فعلاً وتحصل على جميع المناطق الخصبة والثرية، لكن كما يعِد القرآن الكريم، فمن الممكن جداً أن تصبح هذه الحديقة «كالصريم» بقدرة الـلـه سبحانه وتعالى.

إنّ ملامح الجشع والقوة والعجرفة والتكبر هي بمنزلة لوحة مرسومة لنا في هذه الآيات السابقة، وهذه هي ملامح دول العالم الأول، وبخاصة تلك التي تخص الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل، وصورة الإسلام اليوم، أكثر من أي وقت مضى، قد جرى التقليل من شأنها، كما سعت وسائل الدعاية الغربية إلى تشويه هذا الدين، بأنه ينتمي إلى ثقافات قديمة وغير حضارية، أليس عجيباً أن يخاطب القرآن الكريم الانتقادات ذاتها، التي رُدِّدت على نحو درامي منذ أحداث الحادي عشر من أيلول المأساوية؟، والتي اتُهم بارتكابها المتطرفون المسلمون، أليس عجيباً أيضاً أنّ الآراء العلمانية بزمن الرسول الكريم محمد، وقبله المسيح، قد كررت الآراء نفسها تماماً؟، هل وصل هذا التناقض بين العلمانيين والمتدينين إلى درجة كبيرة، أصبحت معها العلمانية تعادي الدين بحصانة غير مسبوقة؟، حيث تُحمل على سفن الحرب، التي تناست أنها تمخر مياه البحار ذات المعجزات الواضحة للعيان.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللـه لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {31} وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللـه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ {﴾، (سورة لقمان، الآيات 31-32).

إذا أصرّ قادة العالم على استخدام العلامات نفسها، التي تدل على عظمة اللـه وعلى خلقه لشنّ الحروب وبدء الشرور في العالم، فهل يمكن الشعوب التي عبّر معظمها عن تدينها وإخلاصها لله ألا تضطرب من انتهاك معتقداتهم الجوهرية وتدنيسها؟، أم غيّرت تلك الشعوب إخلاصها، وأصبحت تتملق الإله فقط؟.

لكن حتى من رؤية غير دينية، هل يعد استخدام مصادر الأرض الطبيعية لتدمير الأرض ومن عليها عملاً أخلاقياً؟، وإذا كانت رؤية العلمانيين وغير المؤمنين، أو المنافقين، تقول باستخدام جميع المصادر المتوافرة على هذه الأرض لبناء آلات الحرب وأسلحتها واستعمالها على نحو عشوائي في سبيل المنفعة المادية، فإن عصرنا إذاً همجي بكل تأكيد، وهو عصر الوحشية المطلقة، هل يعد التسلح الديني وإعادة التسليح السبيل الوحيد لإنقاذنا من هذه الهمجية، وإعادتنا إلى الحالة المتحضرة للإنسانية؟.

يجب علينا أن نتذكر ما يلي:

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللـه بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾، (سورة النحل، الآية 26).

إن إساءة استخدام الثروة يذكّرنا بقصة قارون (أو كورا في الإنجيل):

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللـه لَا يُحِبُّ

الْفَرِحِينَ {76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللـه الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللـه إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللـه لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾، (سورة القصص، الآيات 76-77).

لقد آمن قارون بأن ثروته الهائلة لم تكن بفضل اللـه سبحانه، ولكنه عزا الحصول على هذه الثروة إلى قدرته وعلمه ومهاراته، وهو آمن أيضاً بأن اكتفاءه الذاتي قد جعله قوياً من الناحية المادية، وبالغ في التباهي بغروره العلماني.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللـه قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ، (سورة القصص، الآيات 78-79).

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللـه وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾، (سورة القصص، الآية 81).

إنّ قصة قارون مرتبطة بالبحث عن الثروة والسلطة، ليس فقط لدى قادة الدول وقادة الحروب، لكن أيضاً فيما يتعلق بدول العالم، ليست الديكتاتوريات والدول المستبدة في تصنيفٍ وحدها بمعزل عن الدول، التي يطلق عليها ديمقراطية، لقد أثبت غزو العراق أنّ فئة تنفيذية صغيرة من دون الشعب هي التي تقرر الأعمال الديكتاتورية الرئيسة وتنفذها، والاستفتاءات الشعبية ليست مطلوبة لأخذ القرارات الحاسمة، التي لا تؤثر فقط في دولة معينة وحدها، ولكن تؤثر في المجتمع الدولي برمّته، وهكذا يجري ابتكار العبارات لتسويغ أفعال غير مسؤولة، ويشار إلى الدول ذات السيادة بأنها «أنظمة».

يمجّد قادة الحروب الدولية قيمهم وصفاتهم الفردية ومُثُلهم الديمقراطية المزعومة، وقد أثارت الولايات المتحدة المشكلات ضد

العراق في قضايا تخص ميثاق جنيف، حتى في أثناء غزوها غير الشرعي للعراق، وتجيز أمريكا أيضاً خيانة العراقيين المنفيين، وما يمكن عدّه إرهاباً دولياً بسن تشريعات أمريكية لمصلحة تغيير النظام الحاكم في العراق، وهكذا ولأن الولايات المتحدة لديها تشريع يمول برنامجاً لزعزعة استقرار الدول ذات السيادة، فإن خيانة المنفيين لبلادهم، والإرهاب الدولي الذي تقوم به أمريكا هو عمل مشروع بطريقة أو بأخرى!، كيف يعد هذا العمل شرعياً؟، ومع ذلك لم يكن للأمم المتحدة أي مشكلة فيما يتعلق بشرعية هذا الفعل.

تحاكم القوات الغازية العراقيين بتهمة ارتكاب جرائم حرب، ولكن هذه القوات الغازية الأمريكية ذاتها هي التي نأت بنفسها عن الاعتراف بمحكمة العدل الدولية، وهكذا إذاً يكون الجيش الأمريكي معفى من المسؤولية الدولية، لكنّ الآخرين مسؤولون، وعلاوة على ذلك، فإن الدولة التي تنوي محاكمة مجرمي الحرب هي نفسها خارج حدود القانون الجنائي الدولي.

لقد وجدت الولايات المتحدة أن الأفغانيين المحتجزين في خليج غوانتانامو محتجزون على نحو غير شرعي أمام القانون الأمريكي، وغير مشمولين بحماية القانون الأمريكي، لأنهم ليسوا محتجزين على أرض أمريكية، إذاً فإنّ الدولة الديمقراطية العظيمة ومحررة الشعوب وحامية حقوق الإنسان مقتنعة باحتجاز «المحاربين غير الشرعيين» خارج الولايات المتحدة بعيداً عن أي سلطة قضائية لمحكمة قانونية، ويجب تذكر حقيقة أن الغرب قام بغزو أفغانستان والعراق، ثم ادّعى عدم شرعية كل من عارض هذا الغزو، لذلك ومن أجل أن نكون عاقلين، يجب ألا يجري تسخير القانون لتسويغ الأعمال التي تعد غير شرعية على نحو واضح وصريح، أليس واضحاً للعقلاء أنّ أي قطعة أرض تحت سيطرة الولايات المتحدة الحصرية، سواء بالاستئجار أو بأي طريقة

أخرى، هي تحت السلطة القضائية للمحاكم الأمريكية، أو سوف تعد كذلك منطقياً؟، ويستمر الجدل، ويبقى سؤال واحد فقط من دون جواب، إذا عددنا أنّ غزو أفغانستان كان تحت مظلة شرعية الأمم المتحدة، فلماذا إذاً تشعر الولايات المتحدة بأنّ لها الحق في إدارة اعتقال سجناء الحرب الأفغانيين ومحاكمتهم؟.

إنّ الدول التي تسمّي نفسها ديمقراطية تدّعي أنها تدعم حقوق الإنسان، ومع ذلك ما زلنا نسمع المرّة تلو الأخرى عن تعذيب المعتقلين الجسدي والنفسي، وولدت عبارة جديدة هي «التسليم الاستثنائي»، التي تعني في عصرنا هذا أفعالاً غريبة، تتضمن الاختطاف السري واحتجاز الأشخاص في سجون سرية، حيث يمكن إخفاء آثار التعذيب وحالات الموت بحرقها أو وضعها في مقابر مجهولة.

من السهل على الولايات المتحدة أن تنكر كل هذا، لكن قبل عدة أسابيع من هذا الإنكار صدر اعتراف صريح من رئيس الوزراء البريطاني «توني بلير» بأن تلك الأفعال كانت تمارس من الولايات المتحدة، وقد صرح بلير بهذا في خطابه أمام برلمان جنوب إفريقيا، وكنت محظوظاً برؤية خطابه على التلفاز. وقد أجبرت المحكمة العليا في جنوب إفريقي ا وزير الشؤون الداخلية بالكشف عن مكان سجين جرى اعتقاله واختطافه خلال التسليم الاستثنائي، وأصبح واضحاً أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تعمل بإرادتها في جنوب إفريقيا التي أصبحت متملقة للولايات المتحدة بسرعة.

إنّ الشخصية المذكورة في الإنجيل، والتي تقابل شخصية «قارون» في القرآن الكريم، كانت قد ثارت على موسى وهارون بحجّة أن وضع قارون الاجتماعي والشهرة التي حققها بين الناس أعطته الحق في أن يماثل مستوى أقدس الناس وأكثرهم ورعاً، لقد ادّعى قارون أنه قام مع أتباعه بحرق البخور عند المذبح المقدس، وهي وظيفة كان يقوم بها الكهنة فقط،

وهكذا فإن قارون، تماماً مثل إدارة الرئيس الأمريكي بوش، توهّم بأنه المحرر الورع لشعوب الأرض، ما جعله أسمى من أوروبا وبقية دول العالم.

مع ذلك، أين الاختلاف فيما يتعلق بأخلاقية هذه القضية وشرعيتها، في الوقت الذي نرى فيه على إحدى شاشات التلفزة الموالية لأمريكا صورة جورج بوش قد وضعت فوق صورة صدام حسين على بلاطة صلبة في شارع عراقي؟، حسنٌ، ولكن ألا يظهر مثل هذا العمل حقيقة الأمر؟ ألا تمثل كلتا الشخصيتين البشاعة نفسها؟، أليس الغازي بأبشع من ذلك الذي غزاه؟.

تعد الثروة وسيلة لتطوير آلات الحرب، وبتلك الآلات تملك الدول القدرة على السيطرة على مزيد من الثروات، إنّ قصة قارون في القرآن والإنجيل تشبه مغامرات الولايات المتحدة، فالأمريكيون يستفيدون من تلك الثروات، التي جرى الحصول عليها على نحو غير شرعي على حساب أرواح البشر والإهانة النفسية والصدمات والتدمير، وهم يهللون للانتصارات، ويغدقون قصائد المدح على سيادة الرئيس.

من المعروف أنّ صدام حسين علّق المئات من صوره وتماثيله على جدران المدن والبلدات، لكنها على الأقل كانت في العراق فقط، لكنّ صورة الرئيس الأمريكي بوش تعرض على الملايين من شاشات التلفزة العالمية، وهي بالنتيجة تعرض في ملايين المنازل في العالم، قد يقول الكثيرون إن بوش هو «صدام الغرب»، خاصة مع تهديداته المتبجحة وغروره وتباهيه.

إنّ صورة بوش الدولية كانت لرجل مهووس بالسلطة والكبرياء المغرور، والصورة التي يراها العالم هي لقاطع طريق جاهز لاستخدام آلات الحرب ضد الدول التي لا تملك مقدرة مماثلة على الدفاع عن نفسها، ألا يجعل هذا التعالي بوش على فرنسا وروسيا والمجتمع الدولي

برمّته رجلاً أخطر من صدام حسين؟، هذا هو السؤال المخيف، لكنه السؤال الذي تتداوله ألسنة العامة.

ونذكر هنا النصيحة التي أسداها لقمان إلى ابنه، والمذكورة في القرآن الكريم:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللـه لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {31/ 18} وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (سورة لقمان، الآيات 18-19).

إنّ تحالف الولايات المتحدة المزعوم في غزو العراق كان في الحقيقة شراكة مع بريطانيا، أما الشركاء الآخرون فهم فقط متطفلون، وليس لهم أي وجود في المجتمع الدولي.

وفي هذا السياق يجب ملاحظة أن عدد أتباع قارون كان 250 شخصاً وحسب، لكنه عزا إلى نفسه هذا المجد الفارغ، وإن عدد سكان الولايات المتحدة وبريطانيا مجتمعتين هو أصغر من أتباع قارون مقارنة ببقية سكان العالم آنذاك.

وعلينا هنا أن نتفكر في نصيحة بولس، التي أسداها إلى تيموثاوس أو تيموثي في رسالته إليه:

(1*وَلَكِنِ اعْلَمْ هَذَا أَنَّهُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ سَتَأْتِي أَزْمِنَةٌ صَعْبَةٌ، 2*لأَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ مُحِبِّينَ لأَنْفُسِهِمْ، مُحِبِّينَ لِلْمَالِ، مُتَعَظِّمِينَ، مُسْتَكْبِرِينَ، مُجَدِّفِينَ، غَيْرَ طَائِعِينَ لِوَالِدِيهِمْ، غَيْرَ شَاكِرِينَ، دَنِسِينَ، 3*بِلاَ حُنُوٍّ، بِلاَ رِضىً، ثَالِبِينَ، عَدِيمِي النَّزَاهَةِ، شَرِسِينَ، غَيْرَ مُحِبِّينَ لِلصَّلاَحِ، 4*خَائِنِينَ، مُقْتَحِمِينَ، مُتَصَلِّفِينَ، مُحِبِّينَ لِلَّذَّاتِ دُونَ مَحَبَّةٍ لِلَّهِ، 5لَهُمْ صُورَةُ التَّقْوَى وَلَكِنَّهُمْ مُنْكِرُونَ قُوَّتَهَا. فَأَعْرِضْ عَنْ هَؤُلاَءِ)- تيموثي 3: 1- 5.

أتذكر هنا الأزمة الكوبية والمواجهة بين الولايات المتحدة وروسيا، ويمكنني دوماً أن أستحضر صورة الرئيس كينيدي في خطاباته. لقد كانت الشيوعية هي الخطر على العالم الغربي، وعندما اختفى هذا التهديد، بدأ جيمي كارتر بإذابة الجليد بين الدولتين.

ماذا كان الخطأ إذاً في الوقت الذي كان كل شيء مثالياً لأمريكا؟، عندما كان موضوع نزع السلاح العالمي هو الأبرز في ذلك الوقت، تتحدث الولايات المتحدة اليوم عن أنظمة دفاعية محسّنة وجديدة، وعندما بدأ العالم يهتم بموضوع البيئة، وفهم مدى خطورة ثقب الأوزون على الغلاف الجوي، تراجعت أمريكا عن الالتزام العالمي لتخفيف مقدار التلوث، لأنه سوف يؤثر في الاقتصاد الأمريكي سلبياً، عندما طالب الفلسطينيون بشدة بتدخل قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، عارضت أمريكا هذا الطلب، وعندها فهم العالم أجمع أن هذا يعني إعطاء الضوء الأخضر لإسرائيل باضطهاد الفلسطينيين، وعندما انعقد مؤتمر عالمي في جنوب إفريقيا لمناقشة قضية التمييز العنصري، سعت الولايات المتحدة لتجنبه، لكن بعد أن حضرته قامت بالانسحاب تضامناً مع إسرائيل، ما أظهر الشراكة التقليدية بين الدولتين، التي مثّلت إخفاقاً محزناً لما يتعلق بالتصرفات الدولية الحكيمة.

لم يمثل هذا العمل غرور الشعب الأمريكي، الذي عادة ما يعيش حياته اليومية، ويصبّ جل اهتمامه على الاهتمام بالعمل والعائلة وتحقيق مستقبل أفضل، لقد ترك الشعب الأمريكي التعامل مع قضايا العالم لحكومته، ومع ذلك نرى أن طبيعة الديمقراطية في ذاتها تسمح لبضعة أشخاص بالتحكم بحياة الملايين، وحتى إنه في بعض الأحيان تكون قرارات أولئك الأشخاص ليست في مصلحة الشعب، إن الديمقراطية تسمح بوجود الاستبداد.

عندما نقوم بربط أسماء معينة بالمناصب العامة مثل منصب رئيس الوزراء أو الرئيس، فإن أولئك الذين يتسلمون تلك المناصب يستلمون أيضاً

مسؤولياتها، ولم يكن الغرض قط من أي منصب عالٍ أن يجذب إليه السلطات الفردية، أو أن يصبح كرسي السلطة لمجموعات مستفيدة للتلاعب به، لكننا نعلم مع ذلك حقيقة عدم الشرعية والطموحات الفردية والجماعية التي تجرى مواءمتها خلال العملية الديمقراطية ذاتها.

لقد ترك لنا تاريخ مصر القديم الأهرامات المبهرة، لكن أهمية الأهرامات لا تكمن في معجزة بنائها العظيمة، إنها ترمز في الحقيقة إلى المعنى السلطوي الزائف الذي نسبه الفراعنة إلى أنفسهم، ومن دون المال الضروري للحفاظ على هذه الأماكن السياحية سوف تختفي الأهرامات، وتصبح تراباً منثوراً، وماذا عن الفراعنة؟، إن قبورهم هي معالم كبيرة تمثل السلطة والكبرياء وعدم العقلانية، إن الأبنية العالية والضخمة ليست رموزاً فقط، فالأهرامات كان لها معانٍ نفسية، حيث أظهرت عقلية الفرعون وغروره، وكيف عدّ نفسه عظيماً وجباراً، تفوق قدرته الرجال، إذا كانت المعاني التنجيمية مهمة، وإذا كان الأساس البنائي للأهرامات قد سمح لأرواح الفراعنة بالرقي إلى الكون مثل البرق، فإنهم بلاشك محظوظون.

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ {39/28} فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾، (سورة القصص، الآيات 39-40).

إنّ الاستكبار والغطرسة بغير الحق هي صفتان تنبعان من القوة الاقتصادية والعسكرية:

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (22) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللـه يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (سورة النحل، الآيات 22-23).

﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾، (سورة النحل، الآية 25).

يجب علينا ألا ننسى أبداً أنّ الحكومات والكونغرس والوزارات واللجان تتألف جميعها من أعضاء من البشر، ربما يكون بعض منهم مثل داوود المذكور في الإنجيل في أفعالهم، وقد يكون بعضهم الآخر مثل الفراعنة، ما خلفيات أعضاء الكونغرس والسياسيين الهامين، والذين يعملون وراء الكواليس، ورؤساء الوزراء والرؤساء؟، ليس على أولئك أن يتبعوا خلفيات دينية أو أخلاقية مثبتة، وليس عليهم أن يخضعوا لأي تقييم نفسي أو عقلاني لتحديد قدراتهم الإجرامية أو السيكوباثية أو العدائية الممكنة.

أي شخص ينتمي إلى العائلة التي تملك السلطة، أو أي شخص لديه معارف واسعة وثروة وفيرة يستطيع أن يحوز مقعداً في المناصب العليا، إن هؤلاء الرؤساء ورؤساء الوزراء لم يعيّنوا بأمر من الـلـه، وقد رأينا في التاريخ سجلاً مؤسفاً لمثل أولئك القادة، مثل نابليون وهتلر اللذين سعيا إلى السيطرة على العالم.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ {22} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الـلـه فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾، (سورة محمد، الآيات 22-23).

إنّ القادة الذين ابتعدوا عن السمو الروحاني قد ابتعدوا حقيقة عن الـلـه، وأداروا ظهورهم للأخلاق الدينية.

يخبرنا تاريخ الاستعمار بأن الكثير من السلاطين والقادة امتلكوا الطموحات نفسها، نحن البشر لم نتغير ولم نتعلم، وإذا استخدمنا عبارات جنائية، فنحن نستخدم جميع وسائل التحريض والفساد والكذب والتخويف والسرقة المسلحة واللصوصية للوصول إلى الفخر

الوطني، وأولئك البشر المسلحون على نحو كامل بوساطة قوى الحكومات يتبعون كل العمليات، إن فراعنة اليوم موجودون بكل تأكيد، وتنتشر أهراماتهم في كل مكان.

ويحذّر القرآن الكريم من التالي:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ {1} حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ {2} كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ {3} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ {4} كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ {5} لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ {6} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ {7} ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ {8} ﴾، (سورة التكاثر).

إنّ الولايات المتحدة التي تنعم بأشياء أكثر كثيراً من بقية دول العالم نسيت حقيقة أنّ الـلـه تعالى هو الذي يبقي هذه النعم، والأعمال التي تقوم بها أمريكا تثبت جحودها لله، وحتى لدى الملحدين فهو جحود وخيانة للأخلاق والطموحات العلمانية، التي خصصت للأخلاق التي أوجدها الإنسان، إنها خيانة لمصالح البشرية كلهم.

يرتبط الحلم الأمريكي بتحقيق الثروة على نحو وثيق، والثروة هنا تعني تحقيق الأرباح والتحكم الكامل بالاقتصاد العالمي لمصالح أمريكا الشخصية والأنانية والثروة بالسرقة والحرب المفتوحة والغزوات والغارات والمواجهات العنيفة، بعد أفغانستان والعراق هل ستستدير الولايات المتحدة تجاه إيران وسورية والسودان والصومال؟، حيثما يكون النفط، أو حينما لا يكون مزود النفط خاضعاً لإرادة أمريكا وبريطانيا، فإن هذه الدولة سوف تُغزى بطريقة أو بأخرى، لكن من سيستفيد؟، جميع الأمريكيين، أم القلة المختارة؟، في حزيران من عام 2003م لم تصبح حقول النفط تحت سيطرة الإدارة الأمريكية وحسب، لكن العراق أضحى مديناً للغزاة بمقدار 160 مليار دولار بسبب الحرب وديون الإصلاح، أما كلفة إعادة الإعمار فأضافت ديناً بلغ 120 مليار دولار،

وروسيا الآن مستعدة للذهاب إلى محكمة العدل الدولية في حال خسرت العقود التي وُقعت مع حكومة صدام حسين، ليس هناك أحد مستثنى من طمع المستعمرين، فمع حلول عام 2008م سوف تكون تكاليف ما يسمى أضرار الحرب قد تضاعفت أربع مرات من دون احتساب الفائدة، وفي خضم هذه الفوضى العارمة قامت الحكومة العراقية بتوقيع الصفقات النفطية، التي حققت مكاسب غير مسبوقة للشركات الأمريكية. لكن النفط لم يتدفق، وارتفعت أسعاره على حساب دول العالم.

تلك هي الحدائق التي كانت الولايات المتحدة تأمل أن تقطف ثمارها، ولا تبقي أي شيء للبقية، لقد كانت الثروة وسيلة لضمان تحقيق هذه القوة الاقتصادية والعسكرية الضخمة، وهذه القوة نفسها تسعى إلى ضمان الحصول على مزيد من الثروات والوصول إلى السيطرة العسكرية والنفسية على العالم أجمع.

ويتعجب المرء بناء على الحقيقة المثبتة والمعروفة سابقاً من أنه إذا كانت الولايات المتحدة تملك أكبر قوة عسكرية قتالية (على الأقل من ناحية التجهيزات الحربية) في العالم، فلماذا إذاً تحتاج إلى نظام دفاعي مطوّر؟، هناك الكثير من الفرضيات.

أولاً تخاف أمريكا من أعدائها الذين قد يهاجمونها بالصواريخ، لكن من يكون هؤلاء؟، من المؤكد أن العراق لم يملك أي صواريخ، يصل مداها إلى الولايات المتحدة وتدمرها، ولا تملك أي دولة إسلامية أخرى مثل هذه القدرة، إذاً من أولئك الأعداء المجهولون؟.

الفرضية الثانية هي أن أمريكا توقعت وعلمت على نحو كامل أن نيتها السيطرة على العالم وسياساتها التوسعية، خاصة من حيث أن حكومات الدول الموالية لها تضيف ولايات جديدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، قد تساهم في إنشاء قوة معادية تقرر مهاجمتها، لقد ضحك فلاديمير بوتين

في حزيران من عام 2007م من التهديد المزعوم الذي شكلته إيران على الولايات المتحدة، لكن هل هناك الآن خوف حقيقي من ردة فعل عنيفة، لا تأتي على نحو ضروري من دولة ما، لكن من حركة مقاومة؟، هل سمع بوش في الأخبار بأن رئيس الشرطة البريطانية اقترح عقد حوار مع القاعدة؟، هل يقف الغرب على رجليه مخافة خطر محدق؟.

تقول الفرضية الثالثة إن هذه الأنظمة الدفاعية قد تُستخدم في حقيقة الأمر كأنها أنظمة هجومية، فهل تعد أوروبا آمنة من الولايات المتحدة؟، تعارض روسيا والصين الخطط الأمريكية بوضع صواريخ دفاعية في أوروبا، ومع ذلك أشارت أمريكا إلى أنها سوف تقدم على نشر تلك الصواريخ، هل سيشعل هذا العمل فتيل سباق تسلح بين الولايات المتحدة والصين وروسيا في حرب باردة أخرى؟.

إنّ عشق أمريكا للثروة هو عشق عارم على نحو مؤكد، كذلك الأمر بشأن القوة السياسية والعسكرية، ويظهر هذا العشق في الصورة الدولية لإدارة بوش، وانشغالها بالسلطة العلمانية البيضاء ونفاد صبرها على الشعوب الملونة والاعتقادات الدينية المختلفة، والأهم هنا عدم صبرها على الشعوب المسلمة، التي تشكل القوة الدينية المؤثرة الوحيدة حالياً، وعندما تخفق الخديعة والدعاية الكاذبة ضد المسلمين، يحين الوقت لتلوح الولايات المتحدة بقوتها العسكرية.

نحن نرى الصورة الدولية لتلك الإدارة، لكن الذي لا نراه هو رد فعلها في السر على أخبار التدمير الشامل، الذي تسببه قاذفاتها وقنابلها، وعندما نقرأ القرآن الكريم نرى ما يلي:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ {29} وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ {30} وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾، (سورة المطففين، الآيات 29-30-31).

لقد بالغت الإدارة الأمريكية في تهديداتها للعراق، مفتخرة بأن أمريكا هي القوة العسكرية العظمى في العالم، ووقفت مثل رعاة البقر، الذين يظهرون في الأفلام الأمريكية الرخيصة، وهي راضية تمام الرضى عن صورتها، حتى إنها أخفقت في رؤية السخرية والاحتجاجات الدولية ضدها، وهي تماماً تلك الصورة التي أدّت إلى الانشقاق مع دول أوروبية مثل فرنسا وبلجيكا وألمانيا وروسيا، التي استوعبت برنامج أمريكا المريب والمشبوه.

وكيف يستجيب الشعب الأمريكي لكل هذا؟، هل هم مسرورون لرؤية المواطنين الأبرياء الذين جرى تسميتهم حديثاً «غير مقاتلين»، وهم يُقتَلون من دون أي سبب؟، هل يلاحظون أن غير المسلمين يوصفون «بالمواطنين الأبرياء»، بينما يجري وصف المسلمين بأنهم «غير مقاتلين»؟، هل هم غير فطنين لحقيقة أنه عندما يموت غير المسلمين فهم يعدّون قد قُتلوا على نحو متعمد ومقصود، بينما عندما يموت المسلمون يوصف القتلى بأنهم وقعوا ضحية «ضرر غير مقصود»؟، إن صفة البشرية تنزع من المسلمين عندما تستخدم مثل تلك العبارات، ولا يمكن رؤية هذا العمل بأنه وسيلة نفسية للتغطية على قتل المسلمين الأبرياء وحسب، إن وسائل الإعلام الغربية تقوم على نحو مقصود ودائم بتجريد المسلمين من الإنسانية، لأن القوى العلمانية لا تكترث حقيقة لخير المسلمين وسعادتهم، وهي أيضاً مصممة على تحقير المسلمين، حتى يعدهم بقية العالم لا يستحقون التعاطف العقلاني والوجداني.

لكن هذا الموقف الغربي غير الإنساني بتسويغ فقدان أرواح المسلمين بأنه «ضرر غير مقصود» ينزع ببساطة ثوب الإنسانية عن العلمانية الغربية.

إن هذا الوحش الغربي عنيف حقاً، فهو يمصّ دم المسلمين من دون أي اعتبار لأمن أرواحهم وكرامتهم وسلامتهم النفسية، كم هو عنيف هذا العشق للقوة؟، أليست أمريكا أشبه بالوحش المشار إليه في الآيات التالية؟:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾، (سورة العلق، الآية 6).

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللـه يَرَى {14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ {15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾، (سورة العلق، الآيات 14-15-16).

يجب أن ننتبه إلى تحذير القرآن الكريم الذي يقول:

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾، (سورة القلم، الآية 16).

إنّ السياسة الاقتصادية الدولية التي تسبب الحرمان أو العواقب السلبية على دول أخرى، أو تقود إلى سوء فهم مبني على الجرأة هي سياسة قاصرة، وفي الوقت نفسه ، فخطة العمل السياسية الدولية المبنية على برنامج عمل اقتصادي أناني لا تملك أسساً دوليةً خيّرة، إن الانحياز غير الملائم والتعصب والأحكام السابقة تسبب الانشقاق، وحيث تكون الإرادة الخيّرة يكون الأمان، أما المواقف والطموحات المغرورة والمعادية فتعني عدم الأمان، وهذا ليس ممكناً دوماً، فأفراد العصابة الأمريكيون لا يستطيعون تحمّل بعضهم.

عند حدوث المآسي الأليمة والقاسية فقط يرجع هؤلاء القادة إلى رشدهم، بعض منهم يستمر في غروره، وبعضهم الآخر يعترف بأخطائه.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾، (سورة ص، الآية 28).

من الضروري للشعب الأمريكي أن يعيد تقييم حكومته على نحو عقلاني وذكي، وإنّ احتلال أفغانستان والعراق لا يضمن لهم الأمن، بل على العكس يضعهم في دائرة الخطر، يعلم الشعب الأمريكي هذه الحقيقة، ولا يريد أن يغادر أمريكا للسفر، سوف تصبح أمريكا أشبه بقلعة أو سجن لشعبها، والشيء نفسه لدى بريطانيا.

لقد استهزأت أمريكا وبريطانيا بوقاحة بالرأي الدولي، عندما أعطت إسرائيل الضوء الأخضر في عام 2006م لمهاجمة لبنان وشعبه، وبعد ثلاثين يوماً من الجرائم المتواصلة ضد الإنسانية أصبحت إسرائيل تعد موتاها، وبرز حزب الـلـه بطلاً دولياً لا يقهر.

وقد أخفقت الولايات المتحدة مع مساعداتها العسكرية الضخمة لإسرائيل في الفوز بهذه المغامرة، وزال أي اعتقاد في بريطانيا وأمريكا، أن إسرائيل كانت ستمحو حزب الـلـه من الوجود.

متى سوف يتعلمون فعلاً؟، إنّ إيمانهم بقوتهم وآلاتهم الحربية غير كافٍ لضمان نجاح حملتهم لتحقيق الثروة والقوة، ليس الغرور سلاحاً نفسياً، لكنه موقفٌ يحجب التفكير والعمل المنطقي، وهذا ما يفسد الاستخدام المنطقي للثروة والقوة معاً. ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا {77/} أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا {78} كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا {79} ﴾، (سورة مريم، الآيات 77-78-79). ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ الـلـه آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾، (سورة مريم، الآية 81).

من المؤكد أن القرآن الكريم غني بالتعليقات بشأن تقييم الأفكار والأعمال المغرورة لقادة الحرب العالميين، وهذه الأعمال والأفكار تحدد مصير البشر ومواقفهم السياسية الشخصية، هل ينبع هذا من الشيطان، أو مما يسمى «آلهة غير الـلـه»، أم من غرور العظمة الفردية؟.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ الـلـه بِأَفْوَاهِهِمْ وَالـلـه مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، (سورة الصف، الآية 8).

تكمن الحقيقة المفزعة في أنه مع وجود نور الوحي الإلهي، لن يخضع الملحدون للاعتراف بجبروت الـلـه، وقد يبغض الكثير منهم هذا الجبروت، نحن نتعامل مع أناس يمثلون الشر بمواقف عدائية ضد الـلـه ذاته، وفي كل وجوه الهجوم على القيم الدينية الإسلامية أو المسيحية فإن نية الغرب هي إضعاف الإيمان بالـلـه.

الفصل الثاني

لماذا «سمح» الـلـه بالشر الغربي

إنّ تقدم آلات الحرب الأمريكية من دون رقيب ليس كما يبدو للوهلة الأولى، وكما ذكر في القرآن الكريم، لن تستمر الولايات المتحدة في تفوقها العسكري أو في غرورها النفسي إلى الأبد.

﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، (سورة آل عمران، الآية 178).

﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ {196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾، (سورة آل عمران، الآيات 196-197).

ليس من خير أمريكا وحلفائها أن تتعجرف بكبريائها في الأرض مثل الغيلان، فالـلـه سبحانه يسمح بحدوث هذا النجاح الزائف، حتى يغرقوا على نحو كامل في قوتهم مستمتعين بمسرّات فاسدة، لكن الـلـه يعدهم ويحذّرهم من أنه سوف يقع عليهم عذاب شديد.

وقد يطرح السؤال: لماذا يعطيهم الـلـه سبحانه هذه الفرصة للاستمرار في طغيانهم من دون رقيب؟، الجواب سهل: وهو أن التدخل الإلهي سيكون له تأثيران سلبيان، أولاً، لن يكون هناك ممارسة كاملة لإرادة الإنسان الحرة، حيث ستمتزج بإرادة الـلـه المتدخلة، ثانياً، إن التدخل الإلهي المباشر سيكون في مصلحة من يمارس الشر، لأن أفعاله الشريرة سوف تتوقف لمصلحته الروحانية من دون أي مبادرة فعلية من هذا الإنسان، فالـلـه سبحانه وتعالى يعطي الإنسان الفرصة تلو الأخرى، علّه يرجع عن أعماله الشريرة ويتوب.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾، (سورة مريم، الآية 75).

تؤكد الآية السابقة الرؤية والوقائع التاريخية المذكورة في القرآن الكريم أن اللـه سبحانه لا ينتظر إلى يوم القيامة، ليوقع عذابه على العاصين، فهو سبحانه، ووفقاً لإرادته، قد يعاقب الأمم تحذيراً ضمن واقعهم التاريخي المعاصر وقبل حلول يوم القيامة.

ومن المهم أيضاً أن نذكر أن هذه القوى الشريرة، التي تشن الحروب على المؤمنين سوف تكتشف على المدى الطويل أنها ضعيفة مقارنة بقوة المؤمنين والجبروت الإلهي.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾، (سورة مريم، الآية 98).

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾، (سورة الحج، الآية 45).

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾، (سورة الحج، الآية 48).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾، (سورة القصص، الآية 58).

يعد القرآن الكريم أنّ الفَسَقَةَ والمذنبين لديهم الفرصة للرجوع عن أخطائهم وأعمالهم الفاسدة، ولقد زوّد اللـه سبحانه الجنس البشري بالقدرات العقلية، لكي يمارسوا إرادتهم الحرة على نحو إيجابي:

(لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ {78} أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ {79} أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)، (سورة الزخرف، الآيات 78-79-80).

إنّ حقيقة أن الـلـه سبحانه وتعالى لم يتدخل على نحو حاسم ومباشر قد ذكرت في الآية التالية:

(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء الـلـه لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الـلـه فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)، (سورة محمد، الآية 4).

تشير الآيات السابقة إلى العوامل المتصلة بعدم تدخل الـلـه سبحانه عوضاً من المؤمنين، إنّ جوهر الإيمان هو طاعة أوامر الـلـه، وإحد هذه الأوامر يقضي بأن يكافح المؤمن في سبيل هذا الإيمان وحمايته، وهذا ما على المؤمنين أن يقوموا به، وسوف تظهر حقيقة الإيمان فعلاً، عندما يجري اختبار المؤمنين على نحو شديد، من الممكن أن يحتج المرء قليلاً

على الإيمان، لكن عندما يُهاجَم الإنسان في بدنه وعائلته وعواطفه وسلامته العقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فهنا يظهر المعدن الأصيل للمؤمن، أو يتبين استسلامه لإرادة المعتدين، ويتضمن هذا الاختبار مقارنات كثيرة، تماماً مثلما يختبر الإنسان قدرته في أي مجال ضد الآخرين، وتقارن جهودك على النحو الأمثل مع بقية المؤمنين، هل قمت، وأنت مؤمن، ببذل قصارى جهدك، كما فعل المؤمنون الآخرون؟، يطرح القرآن الكريم هذا السؤال، ويترك المجال للمؤمن لكي يعرف مقدار نفسه، وما يوقظ المؤمن هو ردة فعله على منزلة مساهماته الفردية، عالماً في الوقت ذاته بأن الـلـه سبحانه يعلم جيداً هذه المنزلة.

لا يتوقع الـلـه سبحانه من المؤمن أن يبذل فوق طاقة البشر، لكنه يتوقع أن يبذل المؤمنون قصارى قدراتهم الإنسانية، والحقيقة، أن الآية تنتهي بوعد خاص بمكافأة الشهيد، الذي يموت في سبيل الـلـه.

وقد يكون من السخرية أن يتدخل الـلـه سبحانه لحماية المؤمنين في كل لحظة، من دون أن يكلف هؤلاء تعب حماية أنفسهم، أما غير المؤمنين فلن يتعلموا أن يتوبوا عما صدر منهم.

﴿ إِنَّ الـلـه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾، (سورة الرعد، الآية ١١).

وإذا تدخل الـلـه سبحانه ببساطة فلن يواجه المعتدون أي معارضة لخططهم الشريرة، وعندها سنخسر فائدة استخدام الإرادة الحرة والقدرة على الكفاح ببسالة نتيجة لإيمان عميق، وبكلمات بسيطة لن يكون هناك فرق بين البشر والحيوان عند تدخل الـلـه سبحانه في كل مناسبة.

لاشكّ في أننا سنصبح خاضعين، لأن عالم البشر عندئذٍ سيكون متميزاً بتدخل الـلـه سبحانه في كل وقت وحين، إنّ إمكان الرقي الأخلاقي البشري في ذاته هو جوهر الإرادة الحرة، تماماً كما تكون هذه

الإرادة احتمالاً للانحطاط الأخلاقي للنفس البشرية، وحالما تنتفي هذه الاحتمالات، لن يكون الإنسان في حاجة إلى السعي الدائم لتطوير نفسه، إذا كان السلام المحقق بالاستسلام لغضب الـلـه وجبروته سبحانه هو الذي يحدث على هذه الأرض، لن يملك أيٌ منا الوقت أو الفرصة الملائمة لكي نحقق الإيمان بالـلـه بإرادتنا، ولن يستحق أي واحد منا دخول الجنة، لأننا لم نخضع للاختبار.

إنّ الفعل الإلهي الحاسم والسابق لأوانه إلى أن يصبح جبروت الـلـه سبحانه واضحاً جداً سوف يدمر الفردية ذاتها التي يتميز بها كل واحدٍ منا، وسيكون أيضاً غير منطقي، ولا يتلاءم مع حقيقة خلقنا بشراً. لذلك لن تُفتح الجنة لأي واحد منا على نحو مؤكد إلا إذا أعددنا العدّة، وخضعنا للاختبار على هذه الأرض.

ومن دون هذا الاختبار لن نستحق دخول الجنة أو الفردوس المذكور سابقاً، وفي المقابل كيف سيستحق غير المؤمنين دخول النار، إذا تدخل الـلـه سبحانه بجبروته العظيم، ليعاقبهم قبل أن يحين الوقت الملائم؟، إنّ إبادة الشر على نحو كامل بإرادة الـلـه سبحانه لا يساعد المؤمنين، وحقيقةً هي تسلب منهم الفرصة لإثبات أنفسهم وزيادة إيمانهم بالقواعد والمبادئ القرآنية، حتى يستحقوا أن يفضّلهم الـلـه سبحانه وتعالى.

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الـلـه عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾، (سورة الأحزاب، الآية 23).

إنّ الشهداء هم أولئك الناس الذين أتموا وعدهم للعمل فيما يرضي الـلـه سبحانه، وهناك آخرون مازالوا ينتظرون، ولم تخف عزيمتهم مع الغزوات المتلاحقة ضد الشعب المسلم، ما يفرضه القرآن إذاً هو أن يظل المؤمنون جميعهم مخلصين للإسلام والسعي بصبر وثبات لنيل رضى الـلـه سبحانه.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾، (سورة محمد، الآية 31).

سوف تُختبر وعودنا وتعهداتنا التي قطعناها في سبيل الـلـه، وهي تختبر في الوقت الحالي، ومع العدوان الغاشم على المسلمين منذ منتصف التسعينيات في البلقان وأفغانستان والعراق، والتهديدات على إيران وسورية والصومال والسودان، فإن سلامة المسلمين الدينية تخضع لتحديات شديدة، والقرآن الكريم حاسم في إقراره بأن المسلمين سوف يختبرون في إيمانهم، وقد أظهر التاريخ الحديث أن المسلمين في العالم عرّفوا الهجوم على العراق بأنه هجوم على المسلمين، وبدلاً من أن يهجروا الكفاح في سبيل إيمانهم، اجتمعوا معاً للاحتجاج على هذا الهجوم.

في العشرين من حزيران عام 2003م، صدّق كولين باول قيام إسرائيل باغتيال المقاتلين الفلسطينيين مع أن المدنيين الفلسطينيين هم الذين قُتلوا في العملية، لقد حُرمت الأراضي الفلسطينية المحتلة من حق المقاومة، التي جرى تصنيفها على أنها «إرهاب»، وفي آب عام 2003م أعلن الرئيس الأمريكي بوش أن حماس هي منظمة إرهابية، ومع ذلك، سُمح لإسرائيل باغتيال قادة حماس خلال وقف إطلاق النار، ألم يكن هناك مقاومون في أوروبا عندما احتلها هتلر؟، هل عدّدت هذه المقاومة إرهاباً؟، ربما يجب علينا أن نكون عادلين في حق بوش، ونقول إن هتلر ربما كان عدّها إرهاباً فعلاً.

لو حاولنا أن نكون منطقيين في تفكيرنا لبرزت الحقيقة، وهكذا فإنه من واجبنا أن نفكر بمنطقية، وألا ننساق وراء الدعاية السامة، التي تغزو عقولنا.

(28*وَقَالَ لِلإِنْسَانِ: هُوَذَا مَخَافَةُ الرَّبِّ هِيَ الْحِكْمَةُ وَالْحَيَدَانُ عَنِ الشَّرِّ هُوَ الْفَهْمُ). – أيوب 28: 28

لقد قاد السم الغربي المستمر الرجل العادي إلى أن يتفكر في تاريخ العنصرية وسيطرة البيض والتطهير العرقي، فقد أبادت الولايات المتحدة الهنود الحمر، وأنتجت بعد ذلك مجموعة «الكو كلكس كلان» العنصرية البيضاء، ولدى ألمانيا تاريخ معروف بعداوة السامية، وتعاني حالياً التحامل على الآسيويين، وتعد جمهورية الصرب وسياستها في التطهير العرقي، وخاصة ضد مسلمي البلقان كابوساً حديثاً مرعباً، واحتلت بريطانيا الهند وقتلت الآلاف، كما سفكت أوروبا دماء الإفريقيين، واصطادت أستراليا السكان الأصليين بدم بارد، لقد أنتجت أوروبا هؤلاء العنصريين البيض، وسمعت أحد الأشخاص، وهو يقول إن الولايات المتحدة هي الابن الشيطاني لبريطانيا وأوروبا.

إذا كانت أمريكا وحلفاؤها لا تحارب المسلمين على نحو عام، فهم يحاربون العرب على نحو خاص، وهم يزعمون أن السعوديين قد أنتجوا خلاصة المهاجمين العرب الخمسة عشر، الذين قاموا بمهاجمة برجي التجارة العالميين، لكن، هل يعطي هذا الحق لأمريكا بتشويه المملكة العربية السعودية أو مهاجمتها؟، هذا واضح، وسواء إن كنت صديقاً أو عدواً للولايات المتحدة، فهذا يعتمد الحدث، لقد كان بن لادن وصدام حسين صديقين لأمريكا، وأرادت الأخيرة أن تقبض على أسامة بن لادن، أو هذا ما زعمته، ومن ثمّ قامت بمهاجمة دولة كاملة واحتلتها، لماذا لا تصبح السعودية أفغانستان أخرى؟، لقد ارتكب الأمريكيون الأعمال الإرهابية في المملكة، ولم نسمع السعودية تحمل أمريكا مسؤولية ذلك، أم هل تملك الدول الأوروبية العنصرية البيضاء سابقاً أو السياسيون البريطانيون البيض الحق في إعطاء التعليمات، كما يريدون للدول غير الأوروبية وغير البيضاء؟، هذه العنصرية غريبة حقاً، فاليهود يحوزون منزلة البيض في الغرب، وكذلك الأمر في جنوب إفريقيا العنصرية، يمكن فهم هذا الاستثناء في القاعدة، فإسرائيل هي الحليف الذي جرى

إيجاده لأهداف سياسية غربية في الشرق الأوسط، ومع ذلك تخلصت إسرائيل من كونها عبداً لأوروبا بالسيطرة على الولايات المتحدة، وجعل واشنطن عاصمتها العالمية، إن إسرائيل معادية للعرب المسلمين ومعادية للفلسطينيي، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين، وليس لديها مشكلة بتطبيق التطهير العرقي، وواضح أن الولايات المتحدة لا تعارض العنصرية، ولا تعارض التطهير العرقي.

إنّ بروز دعاة الحرب الغربيين قد حفّز ضمير شعوب العالم أجمع، ويبدو أن الإلحاد والعلمانية الأساسية ، المتنكرة بثوب «المسيحية الأساسية الأمريكية»، تخوض حرباً شاملة ضد المسلمين والإسلام.

(8*يَا رَبُّ اهْدِنِي إِلَى بِرِّكَ بِسَبَبِ أَعْدَائِي. سَهِّلْ قُدَّامِي طَرِيقَكَ. 9*لأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَفْوَاهِهِمْ صِدْقٌ. جَوْفُهُمْ هُوَّةٌ. حَلْقُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ. أَلْسِنَتُهُمْ صَقَلُوهَا. 10*دِنْهُمْ يَا الـلـه. لِيَسْقُطُوا مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ بِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ. طَوِّحْ بِهِمْ لأَنَّهُمْ تَمَرَّدُوا عَلَيْكَ). - المزمور 5: 9.

نحن نقول لأنفسنا إن هذه الحملة الصليبية ليست حملة مسيحية، بل حملة ملحدة وعلمانية، هل اهتم صدام حسين بديمقراطية الولايات المتحدة وحريتها المزعومتين؟، لماذا يشعر ديكتاتور مثل صدام حسين بالغيرة من ديمقراطياتنا؟، يأتي الرؤساء الأمريكيون ويغادرون، ووفقاً للدستور الأمريكي يسمح لهم بفترتي رئاسة فقط، لماذا يشعر صدام حسين بالغيرة من هذه الحرية؟، كان باستطاعة صدام حسين أن يتبنى الدستور الأمريكي في بلاده، ويتبنى الحريات نفسها التي ينادي بها الرئيس بوش، مهما كان معناها، ولو كان حسين يهدد حرية الولايات المتحدة وبمهاجمة الدول بإرادته علناً، فربّما كان هذا كله مفهوماً، هل هذه هي الحرية التي لا يريد الشعب الأمريكي أن يفقدها؟، هل يريدون الحرية التي تخولهم السيطرة على العالم؟، يجيب الرئيس السابق لجنوب إفريقيا نيلسون مانديلا بأنه ليس لأي دولة الحق في إملاء

أوامرها على العالم، إن جنوب إفريقيا دولة محايدة، والشعب هناك ليس مع الولايات المتحدة، هل هذه الحقيقة تجعلنا نحن الشعب الجنوب إفريقي «ضد أمريكا»؟، هل نحن دولة إرهابية؟، هل ستفكر أمريكا في شن الحرب علينا؟، هذا ليس ببعيد، لو ملكنا النفط، فهل ستفكر أمريكا في مهاجمتنا، خاصة أننا شعب أسود، ولسنا دولة بيضاء؟، هل تفكر في أن صدام حسين أراد أن يحول الأمريكيين إلى المسيحية أو الإسلام؟، هل أراد أن يفرض حكومة إسلامية أو مسيحية محل حكومة الولايات المتحدة العلمانية، التي لا تسمح بإقامة الصلوات في مدارسها؟، ماذا يريد صدام حسين من أمريكا؟، لماذا يدمر المستورد الأكبر للنفط العراقي بصاروخ نووي؟.

إذاً بعد كل ما قلناه، لم يستطع العراق احتلال الكويت، فكيف يستطيع غزو أمريكا واحتلالها؟، ومع ذلك ترى الأمريكيين خائفين من صدام حسين؟، هل يريد الشعبان الأمريكي والبريطاني أن يجري خداعهما حتى يقع ذنب الجشع المادي والعنصرية والتطهير العرقي على بوش وبلير وليس عليهم؟، هل جورج بوش هو الرجل المذنب؟، هل هو ضحية مجموعة قوية يثق بها؟.

لقد سمح اللـه سبحانه بحدوث الشر الغربي، لكي يضرب مثلاً بالحقيقة التي تبرز في القرآن الكريم.

وأنا أقتبس هنا الآية التالية من القرآن الكريم لفائدة الإعلام الغربي، وهذه الآية تحدثت عن سعي الإعلام الغربي الحديث لتقويض الرسالة الواضحة في القرآن ولتشويه محتواه وهدفه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، (سورة فصلت، الآية 26).

كلما كانت هناك محاولات لشرح حقيقة الإسلام، أتت الاتهامات بسرعة البرق لصرف الانتباه عن الحقيقة أو تشويهها وتغييبها بتدخل

الدعاية الكاذبة، لكي لا تبرز تلك الحقيقة، وخلال تشويه الحقائق المتعمد والتنافس الشديد في وسائل الخداع والأساليب التكتيكية الكاذبة، التي تستخدم الدعاية المعادية للإسلام، يحاول المعتدون أن تصبح لهم اليد العليا في هذا الأمر.

من المؤكد أن هذه الآية تضرب حبال أولئك المتهمين بنشر الدعاية الكاذبة ضد الإسلام والمسلمين، ولابدّ أن تهز الآية مضاجعهم وتجمعاتهم العلمانية، وتدهش عقولهم، وتنعش ضميرهم، لكي يعوا حقيقة أن ما يسمى «الأدب القديم» (المقصود هو القرآن الكريم) مرتبط على نحو وثيق بروح العصر، خاصة عند فضح الدعاية الغربية الكاذبة، التي تفننت في التلاعب بالكلمات، لقد قلت مراراً، وأقولها مرة أخرى إن القرآن الكريم مرتبط بعصرنا الحديث هذا أكثر كثيراً من زمن الرسول محمد ﷺ.

لقد عبّر القرآن الكريم بوضوح عن حقيقة أن الإسلام لا يتعارض مع المسيحية، وأكثر من هذا، فهو يشير إلى أن المسيحيين والمسلمين جزء لا يتجزأ من أخوية مشتركة:

(♦ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)، (سورة الشورى، الآية 13).

لقد سمح الله سبحانه بوقوع الشر الغربي، لكي يرجع المسيحيون إلى المسيحية، التي نادى بها المسيح عليه الصلاة والسلام، بوسعنا أن نستفيق لرؤية الحقائق، وليس فقط لفلسفاتنا الدينية، ويجب علينا أن ندرك أن العلماني غير المؤمن يقوض التناغم الذي يجب أن يكون بين المسلم والمسيحي واليهودي، لقد استمر الغرب، وخصوصاً الأوروبيين، في مهاجمة الإسلام، وإن الرسوم الكاريكاتورية التي أساءت إلى الرسول

محمد ﷺ، والاستمرار في نشرها، وحظر اللباس الإسلامي يجعل الأوروبيين أعداء المسيح عليه السلام، لايمكن المسيحيين اليوم أن يميزوا بين مسيحي ومن ليس بمسيحي، وإن التمييز الانتقادي قد أصبح واجباً مطلقاً، والمسيحيون يلاحظون بقلق تسلل الدعاية الصهيونية إلى البرامج المسيحية المتلفزة والمحاولات الماكرة لتطبيق اتحاد مسيحي صهيوني ضد الإسلام.

عندما يبرز الشر، يستيقظ ضميرنا الديني، أو تصبح حواسنا الفكرية واضحة على نحو أكبر، ومهما كانت أسباب الانتعاش الفكري الحسي، فإن الحقيقة هي أنه حتى الولايات المتحدة قد استيقظت على زيف حرب بوش، وسيطر الديمقراطيون في عام 2006م على مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وبدأ بعض الأمريكيين بالتفكير منطقياً، أما الحزب الديمقراطي، فالفوضى الدولية لا تزال في مصلحتهم خاصة، وهم يسعون على نحو حثيث إلى احتواء الرئيس، وقد منحتهم هذه الفوضى الدفع الكبير، الذي كانوا يحتاجون إليه للفوز بالانتخابات، لكن مازلنا ننتظر رؤية إذا كان الحزب الديمقراطي سيصبح أقل شراً من نظيره الجمهوري.

والآن يدّعي الرئيس أوباما بقوة أنه مسيحي، حسنٌ، هذا ما كان يدّعيه الرئيس السابق جورج بوش أيضاً.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

لماذا ستزداد مقاومة المؤمنين

لم يتعاضد العالم الإسلامي مع بعضه مثل ذلك من قبل، فمهاجمة الغرب لهم واضحة جداً، لقد بدأت المقاومة للتو، وسوف تتصاعد، ومن ثمّ ستتوقف، عندما ينتهي الظلم.

تدّعي الأمم المتحدة أنها تدير الشؤون الدولية، وأعلنت عن مبادئ الدول المستقلة وحرية الدين والعادات الثقافية، لكنها في المنظور الأكبر قد خرقت واجبها في أن تكون مخلصة لدول العالم بلا استثناء.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللـه وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللـه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {7/9} كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾، (سورة التوبة، الآيات 7-8).

﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾، (سورة التوبة، الآية 12).

إنّ أوامر اللـه سبحانه تقضي أن تكون مقاومة طغيان المعتدين واجباً على المؤمنين، إنّ «أئمّة الكفر أو العدوان» المذكورين في الآية الكريمة السابقة ليسوا فقط الولايات المتحدة وبريطانيا، ويبرهن غزو أفغانستان على أن دعم الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن وبعض الدول الأخرى ذات النفوذ يأتي ضمن تصنيف «أئمّة العدوان»، أمّا الأمم المتحدة فهي المنصة التي يستعملها أولئك الأئمّة، وقد جلب التحالف الأمريكي معه إلى العراق أئمة عدوان آخرين.

ولذلك كان متوقعاً أن المقاومة المسلمة في العراق وأفغانستان ولبنان والصومال كانت ستستهدف كل شيء أجنبي على أراضيها.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللـه بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾، (سورة التوبة، الآية 14).

تتضمن معاقبة الظالم إيقاع العار عليه، ومحاولة مداواة كرامة المؤمنين، ولا تكمن مداواة صدور المؤمنين في تحقيق الانتقام ببساطة، فالعمل الدفاعي ليس انتقاماً، وبالانتصار على الظلم يسيطر المؤمنون على قدرهم الديني، وتأكيد تدخل اللـه سبحانه نيابة عن المؤمنين، عندما يكرسون أنفسهم لخدمة دينهم والمؤمنين على نحو عام ينتج حساً بالطاعة والامتثال لأوامر اللـه سبحانه، وهذا في ذاته يقود إلى مداواة الجروح والآلام، التي عاناها المؤمنون.

تؤكد الآية الكريمة السابقة أن اللـه سبحانه سوف يعاقب المعتدين بأيدي المؤمنين أنفسهم، ويتمثل تدخل اللـه جلّ وعلا في عمل مقاومة بشري، والمقاومة الشرعية هي التي تحظى بمباركة اللـه سبحانه وتأييده، ويدّعي حزب اللـه أنه يحظى بهذا التأييد من عند اللـه، خاصة عندما نرى الإحصائيات التي تسوغ ذلك.

ومن حركات المقاومة الجديدة، التي تبرز من وحي القتل وإحداث الفوضى، سوف يكون هناك بعض منها، وهي تتلقى تحفيزاً خلال الانتقام أو الحقد الشخصي أو الألم الفردي، وهذه قد لا تملك أي هدف ديني، ولا تتلاءم مع الجهاد، حيث من الممكن جداً أن تنحدر إلى مستوى الهجمات الانتقامية الصرفة، إذاً فإن الانطباع العام هو أن المقاومة يجب أن تُنَظّم، وتعمل وفقاً لمنهجية هادفة بما يتوافق مع مبادئ الجهاد.

لقد شهدت العاصمة السعودية، الرياض، هجوماً انتحارياً صاعقاً على الغربيين، وبينما تقتنع الولايات المتحدة بنسبة جميع الهجمات ضد

الغربيين إلى شبكة القاعدة، فهي تبالغ في تبسيط الأمر، فالواحد منا يأخذ انطباعاً أن إدارة بوش تحاول أن تطمئن الأمريكيين، وتحشد الدعم الدولي على أساس أنها تعلم من وراء هذه العمليات، وهذا أيضاً يعطينا الانطباع أن الأمر برمته لا يتعدى شبكة واحدة، يجب القضاء عليها، إن الهجوم على المسلمين ظاهرة منتشرة عالمياً، وإمكان وجود منظمات سرية متعددة هو حقيقة، لا يمكننا أن نتجاهلها.

يجب ببساطة أن نلاحظ حقيقة الهجمات الانتقامية العنيفة، وأن نجد طريقة لكي نتحرك على نحو مؤثر، وبمنهجية موازية مسالمة، حتى نكتشف سبب المواجهات العنيفة، وأنا أؤكد أن السبب هو الذي يجب أن نعمل على تبطئته وإيقافه، وهو السبب نفسه، الذي يعد غير أخلاقي وغير شرعي، إن المقاومة شرعية، وسوف تتوقف فقط، عندما ينتهي الهجوم على الإسلام والمسلمين.

لا يرفض أي مسلم أن يواجه أعداء الدين وقتلة المؤمنين، والحقيقة أن العالم الإسلامي يغلي في استيائه مما يحدث له، وهذا الاستياء يقود المسلمين إلى أن يقدّروا دينهم على نحو أكبر، ويقدروا الآيات القرآنية، التي تحذر من هجوم المعتدين على المسلمين، ويعلموا واجباتهم الشخصية، وما يجب عليهم أن يفعلوه في حال المواجهة، إذاً يعيش المسلمون التزاماً قرآنياً وشحناً دينياً متجدداً.

لقد أيقظت الولايات المتحدة العالم على حقيقة زيف القيم الديمقراطية، والمقاتلون اليوم على اختلافهم يتحركون للدفاع عن أنفسهم، ولا يستسلمون أو يخضعون، والمعروف أن الهجمات، مهما كان حجمها صغيراً ضد القوة العسكرية الضخمة للأمريكيين، تؤدي إلى موت جنود كثيرين، وتؤدي أيضاً إلى إحراج الإدارة الأمريكية داخل البلاد وخارجها أكثر من إيقاع القتلى، يواجَه محررو العراق المحمّلون بالزهور البيضاء بالهجمات الصاروخية، وكل جثة أمريكية تعود إلى بلادها

تقوض صدق الإدارة الأمريكية، ما يؤثر في ملايين المشاهدين، الذين تحولوا إلى مراقبين لما يحصل، وهم يراقبون، ويعلّقون على الأحداث أمام ضمائرهم على الأقل، إن لم يكن أمام الآخرين.

لن تكفي ادعاءات الولايات المتحدة وتظاهرها بسلامة النية أو الرغبات الحسنة لتغير الإدراك بوجود حرب ضد الإسلام والمسلمين، وأكثر من ذلك، فمن الواضح جداً أن المسلمين، سواء جرى تسميتهم إرهابيين أم مقاومين، يقومون بالمقاومة، وقد تغير الرأي الدولي منذ الحرب على العراق، والرأي القائم يقول إنه إذا لم يحارب المسلمون في سبيل عقيدتهم وهويتهم متسلحين بكل ما يملكون، فالمصير الواضح والجلي هو أن أعداءهم سوف يحتلون أراضيهم.

وتذكرنا المغامرة الأمريكية البريطانية بالتحذير القرآني التالي:

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾، (سورة البقرة، الآية 217).

إنّ الإيمان بجبروت الـلـه وقوته سبحانه هو سلاح يستخدمه المؤمنون، ويخبر القرآن الكريم عن الرسول محمد ﷺ، وكيف أجاب دعوة الـلـه سبحانه:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الـلـه وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾، (سورة آل عمران، الآية 173).

ويؤكد المسلمون مراراً وتكراراً أهمية هذا الإيمان، حيث يستمدون قوتهم وهدفهم من الثقة الصلبة التي يمنحها هذا الإيمان، يقول المؤمنون:

﴿ قُلِ الـلـهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، (سورة آل عمران، الآية 26).

يجب أن نتذكر ما أشار إليه القرآن الكريم في ذكره لذي القرنين، الذي كان رجلاً قوياً:

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾، (سورة الكهف، الآية 84).

كان ذو القرنين هو من اقترح فكرة السد الفولاذي، الذي حجز قبائل يأجوج ومأجوج، التي كانت تزعج الناس المسالمين.

لقد كانت قوة ذي القرنين الروحانية منحة من الـلـه سبحانه، لكنه لم يعِد قط بأن الجهود البشرية لصد الأشرار سوف تظل ناجحة من دون الإيمان بالـلـه، فهو ذكّر الجميع بأن إرادة الـلـه سبحانه هي الوحيدة التي ستسود على نحو مؤكد.

وفي الوقت ذاته، من المهم ملاحظة أن وجود الإيمان والعمل به على أرض الواقع هو ما فعله ذو القرنين، عندما أمر بسد جوانب الجبال بالفولاذ والرصاص لمنع يأجوج ومأجوج من الخروج، والأعمال الدفاعية البشرية كانت أيضاً مطلوبة لصد الهجمات.

إنّ الإيمان الذي ترافقه الأعمال الدفاعية هو المسار الصحيح، والشعب الموحد ضد دعاة الحروب والناهبين الدوليين سوف يخلق توازناً جديداً للقوى ووسيلة للتعامل مع الوحشية المستخدمة ضد الإنسان.

يدرك المؤمنون أن حيوية دينهم هي ما يساعدهم في هذه الحرب، فالقرآن الكريم في حداثته الأبدية ومعاصرته لكل حدث تاريخي على مر الزمن، كما تثبت آياته الكريمة، يساعد المؤمنين في سعيهم لتحقيق العدالة الحقيقية مع تهديد القوة العسكرية الغاشمة للمعتدين.

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا {1} فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا {2} فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا {3} فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا {4} فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾، (سورة العاديات، الآيات 1 إلى 5).

يتساءل المعتدون بين بعضهم لماذا يكون الشهداء بين المسلمين؟، لقد كان الرسول محمد ﷺ، في طليعة الجيش، وخاض بنفسه الحروب، حيث خاطر بحياته، حتى ولو كان لديه مهمة أكبر كثيراً من معركة

واحدة فقط، وبخلاف الرأي البسيط الذي يؤمن به بعض المسيحيين والذي يقول إنهم قد جرى إنقاذهم ولا يحتاجون إلى أن يفعلوا أي شيء إضافي لتطهير أنفسهم، لأن المسيح عليه السلام ضحّى بنفسه في سبيل ذلك، يدرك المسلمون، كما يدرك المسيحيون الحقيقيون، أن السعي إلى الخلاص وتطهير النفس هو عملية شخصية ومستمرة ودائمة.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ ﴾، (سورة آل عمران، الآية 144).

إنّ التحدي القرآني واضح وصريح، وهو يقول إنه لو مات الرسول محمد ﷺ، أو قتِل، فهل كان المؤمنون سيرجعون على أعقابهم أو يهربون؟، يقدّر المسلمون حقيقية أن كل فرد فيهم يقع عليه واجب ملازم بالبقاء على الطريق المستقيم والنضال، كما فعل الرسول الكريم محمد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ {15/8} وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾، (سورة الأنفال، الآيات 15-16).

لن يتراجع المسلمون في وجه العدوان الغربي، حتى لو كان من الأمم المتحدة أو التحالف الأمريكي.

لقد شهد شباط وآذار من عام 2003م الملايين من الناس من العالم (على الأقل 600 مدينة)، وهم يتظاهرون من أجل إحلال السلام محل الحرب، وأكثر من ذلك، لُقّب بوش وبلير بعبارات سيئة، وجرى شجبهما ونزع صفة المسيحية عنهما، وفي ذلك الوقت ارتفع اسم نيلسون مانديلا أكثر من أسماء القادة الغربيين، ومُدح من كان له مواقف رجولية ورفع صوته معارضاً للحرب، بينما كان يشار إلى بوش وبلير بكثير من الحقد

والكراهية، في ذلك الوقت حوصر بلير بطوق من الفولاذ في اسكتلندا، عندما تظاهر أكثر من 300 ألف شخص ضد سياساته، وأكثر من مليون شخص في هايد بارك، في ذلك الوقت اجتمع طارق عزيز، وهو وزير الخارجية العراقي المسيحي الأسبق، بالبابا يوحنا بولس، الذي كان قد أرسل مبعوثه إلى بغداد من قبل، ولم يكن البابا يوحنا بولس الثاني رجلاً عنيفاً، ولكن هذه الخطوة كانت بمنزلة صفعة على وجه الرئيس بوش، الذي كان يحاول أن يصور العراق والمسلمين أعداء المسيحيين، وقد أخفقت دعاية بوش الكاذبة، حتى في تصويره مسيحياً.

سوف تزداد المقاومة، لأن القوى الأخلاقية في الميادين الدينية وخارجها ستشكل شراكة سرية أو علنية على نحو عفوي أو غير عفوي، وسواء كان هناك تخطيط أو استراتيجية بشرية أم لا، فإن أصوات الاحتجاج والأصوات الداعية للسلام سوف تناضل ضد آلات الحرب التابعة للمعتدين، وخلال هذا العملية سوف تستمر المقاومة الجسدية، وسيختار المؤمنون، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً، الطريق الإلهي في مقاومة الشر على جميع المستويات.

لم يكن المسلمون من قبل قط مدركين لأهمية دينهم وإيمانهم، ومجتمعين على سبيل اللـه، كما هم اليوم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴾، (سورة آل عمران، الآية 149).

لقد رجع المسلمون إلى قضية الدفاع عن المؤمنين، والآية التالية متصلة بهذا الموضوع في زمننا الحالي:

﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللـه بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللـه الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً

وَكُلاً وَعَدَ اللـه الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللـه الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، (سورة النساء، الآية 95).

إنّ أذان الصلاة في كل مدينة وقرية يعني الكثير اليوم للمسلمين، ويحمل معنى كبيراً للقضية، وهذا الأذان اليوم ملحوظ ومسموع على نحو خاص من غير المسلمين أيضاً، نعم، فالأذان كان يمر مرور الكرام، وكان أمراً تعودناه جداً، حيث لم نلحظه على نحو كبير من قبل، لكن الأمر تغير، فالأذان يصل إلى الأذن العاقلة والأذن ذات الضمير الحي.

وسواء أحبوا هذه الحقيقة أم لا، فإن الولايات المتحدة وبريطانيا قد ساهمتا في زيادة تسليط الضوء على أهمية الإسلام، فحقيقة الإسلام والمسلمين تتلقى دفعاً إلى مقدمة الاهتمامات الدولية، وعاد الضمير المسيحي مرة ثانية، فالمسيحيون اليوم أصبحوا على الأقل مدركين للأعمال الوحشية، التي ارتكبت باسمهم، لكن، أكثر من ذلك، رافق هذا الإدراك دعم غير مسبوق من المجتمع الدولي للمسلمين في أزماتهم في العالم، وهكذا وجدت الولايات المتحدة وبريطانيا نفسيهما في مواجهة بقية دول العالم، ليس فقط من ناحية الحكومات السياسية، ولكن أيضاً من الشعوب.

لا يمكن أبداً بضعة آلاف من عمليات الفحوص والعناية الطبية لأطفال قُصفوا واحترقوا بقنابل وحشية أن تشتري عفواً للغازين، ولا يمكن العقول التي خططت للدعاية الكاذبة في هذا المجال أن تفوز برضا الناس الذين تظاهروا ضد الغزو، وأكثر من ذلك، يجب على من دعم غزو العراق أن ينتحبوا الآن، ويعانوا ذنوبهم لتعاونهم ذاك، متى تراهم يشاهدون المناظر الفظيعة للقتلى؟، ألا يطفئون أجهزة التلفاز عندما تظهر هذه المشاهد؟.

هذا هو الظن على أرض الواقع فيما يخص الشر، الذي يرتكب ضد المسلمين، هذه هي الحقيقة، لا يُنظر إلى قوات التحالف كأنها بطلة، بل هي وحشية.

ويظهر القرآن الكريم أن الـلـه سبحانه سوف ينشر غضبه بطريقة موزونة على البشر من وقت لآخر في تحذيرات، لكي يتعلم الإنسان من هذه الإشارات الإلهية، ويتوب عن ذنبه بإرادته، وبهذه المنهجية الموزونة فقد دمّر الـلـه سبحانه قبائل وأمماً برمتها، لكنه سبحانه أعطى الفرصة للكثير من الأمم الأخرى، ولم يفعل ذلك ليجعل الحياة أسهل على المؤمنين، فالـلـه سبحانه يريد أيضاً أن يرشد غير المؤمنين إلى طرق شرعية أكثر، فهو إذاً لم يهجرهم، والحقيقة هذه أخبار طيبة لمن أعلن إيمانه، لكنه لا يؤمن بالطرق الموزونة، وهي أخبار جيدة للمنافقين أيضاً، وقد ذكر القرآن الكريم أن الـلـه سبحانه رحيم، وتثبت الأحداث التاريخية المذكورة في القرآن الكريم هذه الحقيقة.

ولذلك يمكننا افتراض أنه عندما يُجابَه بالشر والمواجهة، فإن معدن المؤمن يعطى الفرصة للظهور والبروز فوق مياه البحر العاصفة وفوق ميادين النزاعات، متسلحاً بقوة التصميم المستمدة من الإيمان، إذاً فالنضال هو بين اثنين، الأول هو المؤمن وقضيته الفاضلة التي يؤمن بها، والثاني غير المؤمن وقضيته الفاسدة.

ترتاب الدول الإسلامية والعربية حالياً السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وجدير بالذكر هنا التحذير المتكرر الذي ردده القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِالـلـه رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾، (سورة الممتحنة، الآية ١).

وفي الوقت الذي يُهدَّد المسلمون في أراضيهم وسيادتهم، فإن الحقوق نفسها التي أعطاهم الـلـه سبحانه إياها تخضع للاعتداء، ويفلت المعتدون

من العقاب، بعد غزو العراق والتهديدات المفتوحة ضد سورية وإيران يدرك المسلمون الآن أكثر من قبل أن التحذيرات والقرآن الكريم ليست فقط موجهة لغير المؤمنين، بل للمؤمنين أيضاً، وسوف يعيد المسلمون تقييم تحالفاتهم، لئلا يصبحوا مرتدّين مثل المنافقين الغربيين:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللـه سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللـه يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، (سورة محمد، الآية 26).

يحذّر القرآن الكريم من أن أولئك الذين يتعاونون مع الأعداء، حتى ولو جزئياً، لأنهم لا يملكون الشجاعة لمعارضة العدو، أو لأنهم يسعون للحصول على المنفعة المادية، هم في شراكة مع الشر نفسه، الذي يعترفون به، أما المؤمنون الذين يقبلون حقيقة وجود طريقة شرعية مثلى للعيش فيفهمون أن الشر سيُغلَب في النهاية.

هذا هو جوهر المعركة، فالمؤمن ينجح باندماجه في الكفاح ذاته، وبهذا الكفاح يطور المؤمن روحه الأخلاقية والدينية، ويحسّن نصيب المؤمنين، ويحمي الدين وينشره، وليس على المؤمن أن يحقق النجاح قبل أن يصل إلى تحسين جانبه الروحي، وليس عليه أن يحقق هدفاً معيناً قبل أن يقال إنه قام بحماية ونشر الدين، وحتى قبل أي نجاح محدد يدرك المؤمن هدفه على كل الأحوال بعدّه ظاهرة مستمرة إيجابية ومتقدمة، ومادام ينخرط في هذا الكفاح المستمر، فالفوائد التي يحصل عليها تتراكم ثمرة جهود طويلة، إذاً كما يزرع المؤمن يحصد هو والمؤمنون فوائد فورية، وعندما يكون الزرع متواصلاً، كذلك يكون الحصاد.

لقد هجّر المشركون من أهل مكة الرسول محمد ﷺ، خارج المدينة، وذكر اللـه سبحانه أنه دمّر مدناً أقوى كثيراً من مكة بسبب ذنوب أهلها، وكان اللـه قادراً على أن يدمر مكة في الوقت الذي أخرج فيه الرسول محمد ﷺ، خارجها.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾، (سورة محمد، الآية 13).

لكن وجّب على النبي محمد ﷺ، أن ينجح في الاختبار كله، وهكذا كانت عودته المنتصرة إلى مكة بفضل الكفاح البشري، وليس بسبب تدخل اللـه سبحانه ببساطة.

لم يكن المسلمون المحيطون بالرسول آنذاك كثيرين مقارنة بملايين المسلمين اليوم، ويمكن مقارنة المدن العدوانية العاتية اليوم بنيويورك ولندن وتل أبيب، وبكل مدينة حرمت الإسلام والمسلمين الحق في الوجود وامتلاك وطن كما الجميع، والحق في اللباس وفقاً للاختيارات الثقافية والدينية، والحق في التعليم الديني في المدارس الإسلامية.

ليس المطلوب اليوم تدمير هذه المدن العاتية، حيث يجب أن تظل مبانيها قائمة، لم تكن مكة مدينة مصممة لكي تدمّر، والدّاعون إلى الإسلام سوف ينتشرون ويعيشون في تلك المدن نتيجة لفضائل الإسلام، أو بالكفاح الذي أمر به القرآن الكريم، لكي يرسخ الإسلام حقه الشرعي للازدهار بسلام، حيثما تعمّ جذوره، إن العودة إلى مكة هي عودة إلى كل مدينة طردت المسلمين أو آذتهم في دينهم، وسوف يؤسس المسلمون أراضيهم، وهذا القدر يقع فقط بيد المسلمين، والقرآن الكريم واضح على نحو قاطع في أن غير المؤمنين يجب ألا يسمح لهم بأن يؤثروا في مصير المؤمنين، والمسلمون اليوم يؤكدون حقهم الشرعي ويكررونه بأن يجري احترام دينهم.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {1/109} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {2/109} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {3/109} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ {4/109} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {5/109} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، (سورة الكافرون).

لا نطلب هنا إلا أن يكون هناك سياسة واضحة ومحددة واعتراف بحقوق ونيات المسلمين في ممارسة دينهم، وتعد الآية «لكم دينكم ولي دين» أمراً يكرره المسلمون، ونرى في هذه الآية تسامحاً دينياً جلياً، ولكن على نحو مشابه ومؤكد فالمعاملة بالمثل من الطرف الآخر مطلوبة أيضاً، الاحترام وليس التسامح الديني فقط هو ما نحتاج إليه.

يطالب المسلمون بحقوق إنسانية معروفة، منحهم الله إياها، وهذه القضية تشكل تحدياً لم يؤخذ في الحسبان، كما يجب، وهكذا فإن خطوط المعركة قد رسمت.

إنّ الرسوم الكاريكاتورية التي أساءت إلى الرسول محمد ﷺ، والهجمات الشنيعة على الإسلام، والأذى الكبير الذي أصاب صفحات من القرآن الكريم هي فقط بعض من الأعمال التي دفعت المسلمين إلى حماية عقيدتهم، وبينما لم تهز الإسلامَ تلك الهجماتُ ضد الرسول محمد ﷺ، وضد القرآن الكريم، فقد كان لها على نحو مناقض الأثر الإيجابي بإعادة التعبئة الروحية للعالم الإسلامي برمّته، أضف إلى ذلك أنها أشارت، ضمن عيون المجتمعات الدينية غير المسلمة، إلى حقيقة أن الإسلام قد واجه هجوماً ظالماً وكافراً، ولم يكن المسيح عليه السلام، ولن يكون بمنأى عن التشويه، الذي يخطط له أصحاب العقول الشيطانية.

وهكذا، فقد كان على المسيحيين أيضاً أن يضعوا حداً أخلاقياً بين أنفسهم والمجموعات المعادية للإسلام، يأمر القانون المسيحي الأساسي بالتسامح واحترام الحقوق الدينية للآخرين، ويعلم المسيحيون الحقيقيون جيداً تماماً أن المسيح عليه السلام وجّه بأن يستعد الإنسان للتضحية بحياته من أجل أصدقائه:

(13*لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ)، يوحنا 15: 13.

وأكّد المسيح عليه السلام الحاجة إلى أن يكون المرء مستعداً في أثناء المواجهة، وقد قتل الرومان قريبه يوحنا المعمدان، وأعلن القديس أوغسطين، الذي كان العالم اللاهوتي البارز، الذي ترك بصمة واضحة على الكاثوليكية الرومانية، عن المذهب القائل إنّ لدى المسيحيين الحق بالدفاع الجسدي عن أنفسهم.

أمّا على الجبهة السياسية، فإنّ التصرفات الغربية، التي طالبت بنشر الديمقراطيات في العالم الإسلامي وتأسيسها كان لها تأثير سلبي، لقد أصبحت الديمقراطية كلمة سيئة حقاً، وأصبح من واضحاً جداً أنّ إله الديمقراطية الغربي هو شيطان، يتنكر بمظاهر متعددة يجري إنتاجها في الاستوديوهات الأمريكية، ورُفِضت تلك الديمقراطية، التي قادت إلى انتخاب حركة حماس، وأكثر من ذلك، فإن تعليقات الرئيس باراك أوباما الصبيانية، التي قالت إن حركة حماس منظمة إرهابية، تظهر إخفاق أوباما في إدراك أنه أدان أكثرية الناس في فلسطين، الذين انتخبوا حركة حماس لتقودهم، إذاً إنه يرفض أن يتعامل مع الشعب الفلسطيني، أما حكومة العراق، التي تعد لعبة بأيدي الأمريكيين، فهي نسخة بائسة عن كيفية إنشاء حكومة، يقال عنها ديمقراطية، والرأي على أرض الواقع هو أنه إذا لم تكن الحكومة الديمقراطية موالية للغرب فهي ليست ديمقراطية مقبولة بالمعايير الدولية.

النتيجة إذاً هي شك المسلمين في معنى الديمقراطية ونظرهم إليها خديعة غربية، أو بمنزلة حصان طروادة، صُنع في الولايات المتحدة، ليتم تقديمه ونشره في قلب الشرق الأوسط، لقد أصبحت هذه الديمقراطية مترافقة مع جورج بوش ومرفوضة في الوقت ذاته، ويتحرك المسلمون الآن أكثر من أي وقت مضى إلى إنشاء نظام دستوري، يتوافق مع المعايير الإسلامية، أما النسخة الغربية عن الديمقراطية فهي مرفوضة بغض النظر عن الصيغة المثلى.

والنتيجة النهائية هي أنّ مقاومة الديمقراطية الغربية أصبحت جزءاً من المقاومة الكلية للهجوم الغربي على الإسلام، ولا يفوّت النشطاء السياسيون الفرصة بأن يستغلوا القضايا الدينية لتحقيق بعض الانتصارات على الغرب في مسألة القضايا الدستورية.

تزداد المخاوف من دور السلطة العلمانية في تركيا، التي تمثل اليوم النموذج الأسوأ في الإساءة إلى الإسلام، لقد أصبحت تركيا علمانية لتحقيق المصالح المادية فقط المبتغاة من سعيها لتصبح عضواً في الاتحاد الأوروبي، والقوة التي يهدد بها الدستور التركي عندما يلوح بعصا العلمانية ضد الشعب المسلم هي اتهام يمثل وحشية الديمقراطية، التي جرى تصميمها لكي تلائم اللباس الغربي والمجموعات المعادية للإسلام، إنّ اضطهاد المعارضة الدينية بالتحصّن بالعلمانية هو ضربة لأي جهود تبذل للتوصل إلى تسوية بين السلطة الدينية والعلمانية، وحظر الحجاب هو رفض واضح وصريح للتقاليد الدينية والحضارية للمسلمين الأتراك، أما الحظر المفروض على أي حزب سياسي يسعى إلى تغيير علمانية تركيا فهو إهانة للحرية الديمقراطية الحقيقية، ولأنها دولة إسلامية سابقة، فإنّ رفض تركيا الحالي لأي تسوية سوف يفتح أبواب الجهاد.

وحتى تتعقد الأمور أكثر، نسمع عن بعض الأطراف في تركيا، وهي تبذل جهداً جدياً لمواكبة الإسلام مع القرن الحادي والعشرين، إذا كان هذا الجهد يعني وجود تفسير جديد للقرآن الكريم، أو أي تعديل أو تغيير يطرأ على نص القرآن نفسه، فهذه الجهود تمثل التجديف ذاته.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللـه وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللـه يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾،

(سورة التوبة، الآية 107).

يحذّر القرآن الكريم من الفتنة:

﴿ } لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللـه عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ {47/9} لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللـه وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾، (سورة التوبة، الآيات 47-48).

تدرك الأطراف الإسلامية جيداً أن حكومة تركيا العلمانية قد اقترفت إثماً، عندما حرّضت على الإسلام والمؤمنين، وأضعفت القيم التقليدية، وتحدّت رسالة القرآن الكريم الواضحة، وستقول هذه الأطراف للعلمانيين:

﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾، (سورة التوبة، الآية 66).

لقد رُسمت خطوط المعركة، أما المسلمون، الذين كانوا مقتنعين، فهم يتدارسون الإسلام كله مدركين في الوقت نفسه أن القرآن الكريم يمثل برنامج عملٍ اجتماعي وسياسي واقتصادي، يدعو إلى العيش في مجتمع عادل، وظهرت الديمقراطيات الغربية المصممة، لكي تلائم البرامج الغربية على أنها دسائس المعتدين الخادعة، وفي الأحوال الحالية سوف يتظاهر المسلمون، ويبذلون أرواحهم، لكي يحققوا القيمة الجوهرية لواقعية القرآن الكريم.

أما المؤمنين فالأيام التي يعيشونها الآن ليست الأكثر ظلاماً، فعدا المحن والانتصارات التي عاشها الرسول محمد ﷺ، لم يكن هناك قط من قبل مثل هذا الامتحان الدولي لمعدن المسلمين الملتزمين، والمسيحيين الحقيقيين، وجميع البشر ذوي الضمائر الحية.



الفصل الرابع

لن يُترك المؤمنون

(1* إِلَى مَتَى يَا رَبُّ تَنْسَانِي كُلَّ النِّسْيَانِ! إِلَى مَتَى تَحْجُبُ وَجْهَكَ عَنِّي! 2*إِلَى مَتَى أَجْعَلُ هُمُوماً فِي نَفْسِي وَحُزْناً فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ! إِلَى مَتَى يَرْتَفِعُ عَدُوِّي عَلَيَّ!). المزمور 13.

نلاحظ ضمن سياق هذه الترنيمة الإحباط مع مرور الوقت، حيث يصبح إمكان الاضطهاد أمراً صعباً، ويتساءل المضَّطهَدون إذا نسيهم الـلـه سبحانه فعلاً، أو أنه سبحانه سوف يستمر في تجاهل مصيبتهم، لكن الواضح أنه حتى عندما تُذكر تلك الكلمات الحزينة، مازال هناك إيمان قوي بالـلـه.

وفي السنوات الأخيرة فإنّ استمرار الهجوم العنيف على المسلمين في البلقان وأفغانستان والعراق وفلسطين وفي إفريقيا، والهجوم المترافق عليهم ضمن ما يسمى الحرب على الإرهاب، يعني أنّ المعتدين لم يتركوا شيئاً لم يفعلوه في محاولاتهم المستمرة لكسر إيمان المسلمين وإضعافهم، وتعدّ الجرائم بحق المسلمين، وحالات الاغتصاب، والاحتلال، وسرقة الطاقات، وتدمير البنى التحتية، وخلخلة الاقتصاد، وإحداث الفوضى العامة، والاعتداء المميت على عامة المسلمين، وتشويه سمعة دينهم بالإعلام، وتدنيس القرآن الكريم جميعاً جهوداً في سبيل الهجوم النفسي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والجسدي على نفسية المسلمين في العالم للوصول إلى هدف محدد، وهو تدمير إرادتهم في الاستمرار في التزام تعاليم دينهم، ولكي يتخلوا عن عقيدتهم وإيمانهم وهويتهم.

إلى متى يستطيع المسلمون تحمل هذه الأوقات العصيبة؟، وإلى متى يستطيعون تحمل انتصارات المعتدين؟.

لكن هذا تحديداً ما تنبأ به القرآن الكريم، إن الخالق سبحانه يعلم جيداً تاريخ الإنسان، والقرآن الكريم تحدث عن أناس وقبائل فعلت ماهو مماثل للولايات المتحدة وبريطانيا، ومثل هذا الفعل البشري قد ذُكر في القرآن الكريم على نحو واضح، أما المؤمنون الأفراد، فإن لهم الاهتمام الخاص، كما هو مذكور على نحو متكرر في القرآن، والإحباطات التي يشعر بها المؤمنون والغضب العارم لهذه المجموعة من الناس، التي تخضع لهجوم غير أخلاقي وغير ديني ليس بجديد في التاريخ البشري، وليس أيضاً بجديد على الـلـه سبحانه.

﴿} مَّا كَانَ الـلـه لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾، (سورة آل عمران، الآية 179).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، (سورة المؤمنون، الآية 1).

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾، (سورة فصلت، الآية 31).

ويتنبأ القرآن الكريم في إشاراته بحقيقة أن الشعوب الطالحة سيكون مصيرها الدمار، ولن يُترك المؤمنون في حالة الاضطهاد الحالية التي يعيشونها، وهذا يعدّ وعداً صريحاً من القرآن الكريم.

والمهم هنا هو أن الـلـه سبحانه وتعالى يؤكّد أنه نصير المؤمنين «في الحياة الدنيا»، وليس فقط في «الآخرة».

ويقطع الكتاب المقدس هذا الوعد أيضاً:

(3*أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَتُرْسٌ لِي. مَجْدِي وَرَافِعُ رَأْسِي). المزمور 3: 3.

وما هو مهم أيضاً هو أنّ القرآن الكريم يسهب في ذكر كيف يريد الـلـه سبحانه حماية المؤمنين:

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ﴾، (سورة الفتح، الآية 22).

يتوقع الـلـه سبحانه من المؤمنين مقاومة الهجمات ضدهم، وضمن سياق هذه الحملات الهجومية لابدّ أنّ المعتدين سوف يولّون الأدبار للبحث عن العون من مصادر أخرى، قد تكون من حلفائهم أو حتى اللجوء إلى الـلـه، عندها لن يجد المعتدون أي نصير أو معين، وسوف تنتصر المقاومة، وقد أظهر تاريخ البشرية أن الاضطهاد يولّد المقاومة، وإذا كانت هذه المقاومة مبنية على معتقدات دينية وأخلاقية، فسوف يتدخل الـلـه سبحانه بطريقة أو بأخرى:

﴿ سُنَّةَ الـلـه فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الـلـه تَبْدِيلًا﴾، (سورة الفتح، الآية 23).

ومع أنّ المعتدي قد خطط لهجومه ضمن فترة زمنية، ومن ثمّ فاجأ المعتدى عليه، فلن يكون هناك على نحو ضروري أي انتصار، قد يفوز به المعتدي في آخر الأمر.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الـلـه وَالـلـه خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، (سورة الأنفال، الآية 30).

لقد خططت الولايات المتحدة وبريطانيا ضمن هجومهما على العراق وأفغانستان لطرد حكومتي الدولتين والسيطرة على هذه المناطق، لكن التاريخ المعاصر يظهر أنّ المقاومة كانت مرنة على نحو كافٍ، أبطلت معه أثر هذه الهجمات، لقد أخفق التحالف في جذب أوروبا للتورط في العراق، وتعد زيادة القوات الأمريكية الأخيرة في العراق الجهد غير الناجح الأخير للرئيس غير الناجح بوش، الذي فقد السيطرة على الحكومة الأمريكية، وخسر الأكثرية لمصلحة الديمقراطيين، وأخذ التحالف بالانحلال بعد أن سحبت دول شريكة مثل إسبانيا وأستراليا واليابان قواتها من العراق، وهكذا فقد ولّت الولايات المتحدة وبريطانيا

الأدبار، ولم تجد أي نصير أو معين، ليس في حكومة العراق العميلة، التي يدرب التحالف قواتها، والتي تعد عاجزة عن إنشاء جيش قادر على تثبيت دعائمها في مواجهة حركات المقاومة، وحتى الاقتتال الطائفي بين السنة والشيعة في العراق ليس بقادر على أن يشتت الانتباه عن برنامج العمل المركزي المتمثل في طرد المحتلين غير الشرعيين ونظام الحكم الذي وضعوه، ويبدو أن حربين، حرباً طائفية وحرباً ضد المحتلين، تشتعلان معاً في الوقت الذي كان المرء فيه يتوقع أن العراقيين تغاضوا عن قوات الاحتلال، وهذا ما كان سيضمن النصر لهذه القوات، وسواء كان العنف الطائفي مدعوماً من طرف ثالث أم لا، لم يسبب هذا العنف تراجعاً رئيساً في حركات المقاومة وقتالها ضد قوات التحالف، يريد الكونغرس الأمريكي أن تنسحب قواته من العراق، وجورج بوش هو الوحيد في هذه الحرب، وقد سبّب طوني بلير إحراجاً لحزبه، حيث أصبح عبئاً ثقيلاً على حزب العمل البريطاني، لقد مكر جورج بوش وطوني بلير في هذه الحرب، لكن الـلـه سبحانه يخطط ويمكر أيضاً: ﴿ وَاللـه خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

يؤكد القرآن الكريم الجانب المهم المتمثل في أنّ الـلـه سبحانه عليم بكل شيء: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ {79/43} أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾، (سورة الزخرف، الآيات 79-80) .

ما الذي يمكن أن نستنتجه إذاً من الفعل الذي يسمح به الـلـه سبحانه، عندما يخضع الإنسان للاضطهاد؟، يقرر القرآن الكريم أن هذا الفعل هو حقيقة مستمرة، وقد أثبت نجاحه في الماضي، إن الإنسان المغرور، الذي يتبع منهجاً عنيفاً في حياته، لا تحيطه إرادة الـلـه سبحانه فجأة، فهو، كما يوصف في مواضع من القرآن الكريم، (يُمَدّ له) حتى يستمر في ارتكاب انتهاكاته، وقد بارك الـلـه سبحانه في المقاومة

والجهاد، ومستوى هذا الجهاد هو شيء ملهم، حيث يحقق الانتصارات المتتالية، التي لا تدركها أعين المعتدين، ويبدو التأثير النفسي في القوات المعتدية من أوطانهم، حيث تبدأ المقاومة في وطن المعتدي بالنمو والازدياد، ويهجر المتحالفون قائدهم الأول، إذاً إن هذا الإلهام الروحاني للمؤمنين هو جزء من فعل الـلـه سبحانه وتعالى وخططه.

أما الحد الذي يؤثر فيه الـلـه سبحانه في منحى بعض الأحداث فهو عائد إلى إرادته الحكيمة، ويرسل الـلـه سبحانه رسائل مباشرة، تلهم أولئك المؤمنين، الذي يدافعون عن عقيدتهم، كما يسمح الـلـه للمجرمين وهؤلاء الذين يسعون في الأرض فساداً بالاستمرار في نياتهم الشريرة إلى أن يحين وقت يحدده الـلـه سبحانه، أو يحدده الإدراك الذاتي لهؤلاء الناس، وكما يظهر القرآن الكريم، سوف يدمر الـلـه سبحانه في الوقت الملائم وضمن الأحوال الملائمة القبائل أو الأمم المعتدية بإرادته قبل يوم القيامة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾، (سورة مريم، الآية 83).

وعندما يصل الشر إلى مرحلة يتحدى فيها المعتدون بجنون جميع القوى والقيم الأخلاقية، ينمو الشر ويكبر، حتى يدفع أولئك المعتدين إلى تدمير أنفسهم بأنفسهم، وهذا حقاً جزء من خطة الـلـه سبحانه وإرادته.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ ، (سورة مريم، الآية 84).

وقد أوصى الـلـه سبحانه وتعالى المقاومة بألا تقوم بعجلة أو بإلحاح غير ملائم، ولكن أن تتحرك بحكمة، لقد منح الـلـه سبحانه المعتدين وقتاً قصيراً ومحدداً فقط، لكي يرتكبوا جرائمهم، وهذا الوقت ليس أبدياً، ويمكننا القول فعلاً إن أيامهم أصبحت معدودة.


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

المنذِرون والنُذُر

لا يمكن أحدنا أبداً القول إنه في القرن الحادي والعشرين لا يعلم ماذا يحدث في العالم، لقد كان هناك أنبياء ومنذرون، أُرسِلوا قبل الرسول محمد ﷺ، لقد كان هناك موسى عليه السلام والمسيح عليه السلام، وآخرون أيضاً قبل الرسول محمد ﷺ.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾، (سورة القصص، الآية 59).

﴿ طه {1/20} مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {2/20} إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى {3/20} تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾، (سورة طه، الآيات 1 حتى 4).

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ، (سورة الشورى، الآية 7).

من المهم ملاحظة أن اللغة العربية هي لغة القوم الذين تلقوا رسالة الإسلام، ولهذا فقد صيغت هذه الرسالة على نحو واضح وبسيط لهم، وبدأت هذه الرسالة في مكة المكرمة، لكنها توسعت بعد ذلك، وذهبت إلى أبعد من مكة، خاصة أن المؤمنين قد أُمِروا بحمل الرسالة ونشرها إلى جميع الأماكن، لذلك إذا تخيل الواحد منا أن مكة المكرمة هي مركز العالم الإسلامي، فقد كان على الرسالة أن تنتشر إلى جميع الأماكن حول هذا المركز، أي إلى أطراف العالم أجمع.

أي أن طرق العيش الخيّرة التي جسدها القرآن الكريم مرتبطة بالعالم أجمع، وليست حكراً على المؤمنين الحاليين فقط.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾، (سورة مريم، الآية 97).

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، (سورة الزخرف، الآية 61).

يجب على المسيحيين أن يعطوا انتباههم للآية المذكورة سابقاً، إنّ تقوى الـلـه سبحانه هي الطريق المستقيم.

(13* اُدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ! 14* مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!). متى 7: 13.

لقد كان الرسول محمد ﷺ، منذراً للبشرية:

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ {23/35} إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾، (سورة فاطر، الآيات 23-24).

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾، (سورة النجم، الآية 56).

إنّ رسول الـلـه محمداً ﷺ، هو خاتم الأنبياء، أما أولئك الذين يؤمنون بقدوم رسول بعده، فالسؤال الذي نطرحه هو لماذا؟، لماذا يجب أن يكون هناك رسول آخر بعده؟، لماذا يحتاج العالم إلى رسول آخر؟، هل مازلنا في القرن الحادي والعشرين جاهلين على نحو نحتاج منه إلى رسول آخر؟، ماذا سيضيف هذا الرسول إلى شيء قد قيل من قبله؟، قد يقول النقاد إن أولئك الذين يلقبّون أنفسهم المسيحيين، مثل المسيحيين الصهيونيين، ينتظرون أيضاً عودة المسيح.

لقـد أعلـن القـرآن الكـريم عـلى نحـو قـاطع أنّ القواعـد قـد تمـت وأنّ الطرق الشرعية التي يجب أن يتبعها الإنسـان قـد وُضِـعت، وهكـذا فإمـا أن

يطيع الإنسان هذه القواعد والطرق، وأما أن يواجه العواقب، إنّ القرآن الكريم هو الرسالة السماوية الأخيرة والختامية، ونحن بشراً لا نحتاج الآن إلى أكثر من ذلك الذي نملكه حالياً، وإذا قمنا مسيحيين بإعادة قراءة العهد الجديد والقرآن الكريم على أنهما الرسالتان الختاميتان، نستطيع إذاً أن نرى جميع القواعد والتوجيهات الرشيدة ونملكها.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ {27/81} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾، (سورة التكوير، الآيات 27-28).

ويحوي القرآن بين طياته جميع النُذُر الممكنة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {116/3} مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، (سورة آل عمران، الآيات 116-117).

إنّ الوحي القرآني ذاته يشكل النذير الأخير، ولقد أخفقت ستمئة عام من التعليم المسيحي في تحويل أوروبا إلى التزام المعايير الأخلاقية، ولو نجحت الحركة المسيحية في ذلك لما كان هناك على نحو مؤكد أي سبب لظهور الرسالة السماوية المتمثلة في الإسلام، ويشهد القرآن الكريم في الواقع على إخفاق الغرب في الوصول إلى المعايير الأخلاقية المطلوبة، وإن النمو المطرد لتأثير الإسلام في العالم هو نتيجة لتراجع الوجه الدولي للمسيحية وانحداره.

وإذا رجعنا إلى الوراء، آخذين هذا الاستنتاج في الحسبان، لرأينا أنّ أوروبا وصلت إلى حافة الانهيار والإفلاس من الناحية الأخلاقية، ولم يكن هناك إعادة تقييم أو تفكير في الوضع، أو أي تدقيق في التوازن الأخلاقي، وحتى بعد البروز المذهل للرسول محمد ﷺ، واختياره في عام

608 للميلاد ليصبح رسول الـلـه، لم يتساءل أي أوروبي إذا كان هذا الدين القادم من الجزيرة العربية، والذي ترك بصمته المؤثرة في غضون عقد من الزمن، وبنتائج اقتصادية واجتماعية وسياسية على الشرق الأوسط، يمكنه أن ينتشر في العالم كما فعلت المسيحية من قبله، لم يتساءل أحد: لماذا عندما بنت المسيحية لنفسها قاعدة في الشرق الأوسط كان هناك هذه القوة الدينية الجديدة القوية والمنافسة؟، لماذا أتى المنتَج المسيحي ثانياً في مثل هذا السوق؟، هل كان هذا خطأ المؤمن؟، هل كانت صورة القيادة المسيحية المزعومة ملطخة؟، هل كانت النصرانية اللاعب الأقل تأثيراً في مواجهة القوى العلمانية؟، هل كان الإسلام صديقاً أم عدواً للمسيحية؟، ألم يكن التحالف بين العقيدتين أفضل للعالم في ظل وجود معارضة قوية ومتنامية من القوى العلمانية؟، لقد خضعت الكنيسة الكاثوليكية حقاً للقوى العلمانية، وكانت مدينة الفاتيكان تسوية لحفظ ماء الوجه.

وعلى مر ألفي سنة بعد ذلك، سيطرت القوى غير الدينية على العالم متخفية بوجه مسيحي وبوجوه أخرى، أما نحن، الذين نؤمن بالـلـه، فعلينا أن نطرح تلك الأسئلة الآن، حتى لو أخفق أجدادنا في طرحها.

وعند النظر إلى محتوى القرآن الكريم يبدو العذاب والاضطهاد، وكأنه جزء من تاريخ البشرية فقط، لأن الإنسان سمح لنفسه بأن يقع في مستنقعات المياه الروحية الراكدة، إنه لتاريخ قصير منذ ظهور المسيح عليه السلام إلى الآن، لكنه مع ذلك تاريخ خامل وهامد، أصبح فيه التدين المسيحي مظلماً، وسيطرت فيه جميع القوى العلمانية المعارضة.

لقد ازدهر الإسلام على نحو ملحوظ، وأصبح العدو الأول للقوى المعادية لقواه الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

يجب على المسيحيين أن يعيدوا التفكير في معمودية المسيح من قبل يوحنا، وأن يعيدوا التفكير أيضاً في معموديتهم، إن إعادة التسلح

الأخلاقي لمسيحيي العالم سوف يسحبنا من هذه المياه الروحية المظلمة، وتضعنا على طريق التحالف مع المسلمين بعدّهم شركاء في الرحلة المشتركة في سبيل اللـه من دون أن نخسر هويتنا، لكن تأكيداً لأخوة كانت، ومازالت تعد مصيرنا المشترك.

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ {91/21} إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ {92/21} وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾، (سورة الأنبياء، الآيات 91-92-93).

إنّ التحذيرات والأوامر المذكورة في القرآن الكريم هي في صلب القضية، وفي جميع هذه التحذيرات، هناك تذكير صريح بأن الهدف الإلهي متوقع في الأعمال والنيات الإنسانية.

إنّ التحذير الأخير متمثل في القرآن الكريم، لقد أرسل اللـه سبحانه الرسول محمداً ﷺ، برسالة يجب علينا أن نوليها اهتمامنا.



الفصل السادس

عقوبة المخالفين لأمر الـلـه

من الجدير بالذكر فيما يتعلق بالمخالفات أن القرآن الكريم أعلن أن السارق مثلاً يجب أن تقطع يداه، ما العقوبة التي ينزلها الـلـه سبحانه سوى نار جهنم على القبائل والأمم، التي تسلب المؤمنين أراضيهم وحقوقهم، وتُخضِع الأمم المؤمنة عبر بتغيير الأنظمة الحاكمة وإرساء حكومات عميلة كافرة بدلاً منها؟، هل ستُقطَع أطراف أفراد تلك القبائل والأمم من أجسامهم؟، هل سيكون هناك أذى جسدي أكبر يطبّق على نطاق أوسع؟.

لقد اكتسب وضع المؤمنين المظلوم التعاطف والنيات الحسنة من الشعب الأمريكي وجعله يقف بعيداً عن حكومته، لكنّ هذا التعاطف لا يبرئ الناخب الأمريكي.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الـلـه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾، (سورة المائدة، الآية ٤٤).

إنّ أي دفاع إنساني عن أولئك الذين أراد الـلـه سبحانه وتعالى أن يحاسبهم على أفعالهم الشريرة لن يساعدهم أو يعينهم، وفي المقابل لا يجوز لأي إنسان أن يتحدى حكم الـلـه سبحانه في هؤلاء القوم.

يتساءل النقاد قائلين: ماذا فعل الشعب الأمريكي وفقاً لحقوقه الديمقراطية، لكي يوقف الحرب ضد المسلمين؟، عندما يصدق مجلس النواب الأمريكي قرارات الرئيس، فهل هذ التصديق يمثل مواقف الشعب الأمريكي؟، ربما تصبح مثل هذا التصديق فعلاً برهاناً على الذنب الذي اقترفه الشعب، ولن يكون كافياً ادّعاء الأمريكيين بأنهم قد خُدِعوا، وهذا الادعاء يمكن أن يقال بقصد للتخفيف عن الذنب فقط، لكنه لن يبرّئ ساحة الأمريكيين.

ونكرر هنا آية من القرآن الكريم، لا تتعلق بالمعتدين وحسب، لكنها تتصل على نحو رئيس بالناس، الذين كانوا يعلمون ما يجري، وهذا تماماً ما يمكننا أن نقوله عن قادة الدول، لكن كما هي الحال لدى جميع الناس المطّلعين، سوف يكون الفرد الأمريكي والبريطاني مسؤولين عن خطئهما وعن مساهمتهما في أخطاء وذنوب قادتهما.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللـه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾، (سورة النساء، الآية 85).

﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾، (سورة النحل، الآية 25).

ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه علينا أن نتحمل ذنب الإخفاق وعقوبته في تثقيف الآخرين ونصحهم خاصة أننا نعلم أوامر اللـه سبحانه وتوجيهاته، وهكذا يجب علينا أن نشترك في حمل العبء مع الجاهلين والمخدوعين، وبينما سيغفر اللـه سبحانه للقسم الأخير جزئياً، سوف نعاني العبء الكامل لإخفاقنا في التحرك وإيصال حقيقة ما نعرفه إلى الناس، إضافة إلى المعاناة الناتجة من أولئك الذين لم نفلح في إطلاعهم على الحقائق.

وبناء على التحذير القرآني، الذي أشارت إليه الآية السابقة، يجب على المؤمنين ألا يستكينوا، ويتراجعوا عن القضايا الهامة، التي تتعلق بهم.

وكما يمكننا أن نرى في القرآن الكريم، فإنّ المغفرة التي تمنح لإنسان مقابل آخر ليست شيئاً مادياً مقابل شيء إلهي، إنّ الرحمة، التي يسعى إليها الناس الذين ظُلموا، لا يمكن أن تحل محل العدالة، التي سوف يحلّها اللـه سبحانه، فهو وحده الذي يقرر من ستجري عقوبته وإلى أي مدى، إنّ هذه الحقيقة هي بإرادة اللـه واختياره، وليست بإرادة الإنسان،

أي إن المغفرة التي يسعى جميع المسلمون إليها، والصلوات التي يقومون بها لإنزال الرحمة على القتلة واللصوص الغربيين، لا يمكنها أن تثني اللـه سبحانه عن إنزال العقوبة الملائمة.

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾، (سورة مريم، الآية 87).

يجب علينا أن نعلم أيضاً أن اللـه سبحانه ليس مقيداً بمثل هذه الشفاعة، لقد ذكر اللـه جلّ وعلا أنه سوف يأخذ تلك الشفاعات وصلوات الرحمة الآتية من أفراد محددين، (من الأنبياء والأتقياء) في الحسبان، لكنه سبحانه هو الوحيد الذي يقرر إنزال العقوبة أو عدمه.

لاحظ أنه عندما يتعلق الأمر بعقاب الأمم أو القبائل المتكبرة، فقد اختار اللـه سبحانه أن يدمرها:

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾، (سورة الكهف، الآية 59).

ويبرز التحذير المحدد للقادة والأمم على نحو واضح في الآية التالية:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ {22/47} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللـه فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾، (سورة محمد، الآيات 22-23).

إذاً في هذه الآية هناك قاعدة واضحة وبسيطة، تقول إنه يجب على القادة أو الأمم ألا تظلم الآخرين، أو أن تنتهك حدود الإنصاف والعدالة، التي حددها نص القرآن الكريم.

لا يمكن النيات الديمقراطية، التي وضعها الإنسان، أن ترتقي إلى كمال ميزان العدالة، التي ذكرها القرآن الكريم، ومما لا شك فيه أنه ليست هناك أي نيات ديمقراطية، تسمح بسفك دماء المؤمنين وسلبهم أراضيهم بذريعة أنّ إحلال هذه «النيات الديمقراطية» كان العمل الصحيح.

لقـــد وعـــد القـــرآن الكـــريم بإضـــعاف أنمـــاط النفـــوذ، التـــي تتخـــذها الدول المعتدية، وسوف تجد هـذه الـدول نفسـها حـتماً وعـلى نحـو بطـيء ضـعيفة النفوذ.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ {43/21} بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، (سورة الأنبياء، الآيات 43-44).

لقد واجه الاتحاد السوفييتي السابق هـذا المصـير، عنـدما فقـدت روسـيا السـيطرة عليه، وفقـدت القـوى الاسـتعمارية سـيطرتها عـلى مسـتعمراتها السـابقة، هـل تتوقـع الولايات المتحدة أن تستمتع بسيطرتها المطلقة على العالم بالقوة والاقتصاد إلى الأبـد؟، تسعى أوروبا الآن إلى الحصول على قوة مسلحة على نحـو مسـتقل عـن أمريكـا، وهـي تطور اقتصادها الخاص بها، مدركة في الوقت نفسـه أن الولايـات المتحـدة وطنيـة عـلى نحو أناني في تبنيها للتجارة الحرة العالمية، إن سياسة الحماية الأمريكية في قطاع الفـولاذ فاجأت أوروبا بعد فترة قصيرة من الإجماع المزعـوم في الحـرب عـلى أفغانسـتان، ورأت أوروبا تراجع الولايات المتحدة في الحرية الاقتصادية، وساهمت جنوب إفريقيا في عزلـة أمريكا، عندما استضافت مـؤتمراً عـن العنصريـة، ونـأت روسـيا وفرنسـا بنفسـيهما عـن حرب العراق، حتى إن الرئيس الروسي بوتين شجب على نحو قاطع اتهام بلـير للعـراق، حيث لم يثبت هذا الاتهام أي شيء ضد هذا البلد، وقـد خُفِّـف القـرار بعـد ذلـك، لـكي يحرم الولايات المتحدة الحق التلقـائي بشـن الحـرب، وقـد تضـمن القـرار أن العواقـب الوخيمة التـي قـد يواجههـا العـراق يجـب أن تحـددها الأمـم المتحـدة، ولـيس البيـت الأبيض، إن غـزو الولايـات المتحـدة للعـراق فردياً مـع مـا يسـمى التحـالف سـاهم في

عزل أمريكا على نحو أكبر، كما كان رد الفعل العالمي على أنانية أمريكا في قضية التلوث البيئي مدوياً، أما رفض الولايات المتحدة قبول شرعية المحكمة الجنائية الدولية فدق ناقوس الخطر، خاصة عندما يتعلق الأمر بقوتها العسكرية في العالم، لقد انحدر تأثير أمريكا دراماتيكياً منذ بدء مغامرتها العراقية، وتلقى صدقها ومصداقية بريطانيا صفعة قوية مستحقة، ويستمر الدعم الأمريكي والانكليزي لإسرائيل ومعاييرها المزدوجة في تعريف الإرهاب والإرهابيين، وفي تعريف العدوان والدفاع عن النفس في تعميق الخلاف بين هاتين الدولتين وبقية دول العالم، ومع البرود الدبلوماسي يتضح من ردة فعل الناس على الأرض أن الولايات المتحدة وبريطانيا ومعهما إسرائيل تتحول بسرعة إلى دول منبوذة، وبينما يستمر بلير في جولاته المكوكية الدبلوماسية، فهو يعد غير مرغوب، أو مدعواً وزائراً غير مرحب به، وخصوصاً أن وجوده أصبح لا يحتمل، وعلى نحو مؤكد، لو كان التعاون قريباً على نحو إرادي لكان الوزراء من بقية دول العالم مسرورين بالسفر إلى أمريكا وبريطانيا عوضاً من رؤية بلير، وهو يتضرع إلى المجتمع الدولي، لقد كانت بريطانيا القوة الدولية الوحيدة، التي دعمت الولايات المتحدة من دون أي تحفظ في غزوها للعراق، أما بقية الدول فقد تراجعت عن هذا الدعم، وبدت الأمم المتحدة في مأزق أمام كيفية السيطرة على تلك المغامرة الأمريكية، لقد أدان نيلسون مانديلا الرئيس السابق لجنوب إفريقيا الولايات المتحدة، عندما أعلن أنه ليس لأي دولة الحق في إملاء الأوامر على بقية الدول، وبسبب الإهمال الدولي أصبحت أمريكا اللاعب الدولي الأكثر أهمية والقائد وواضع السياسة في العالم، وهذا الوضع يخضع الآن لإعادة التفكير فيه من الأجندة الدولية، وسوف يخضع وضعه المستقبلي لتعديل يجري إقراره، إن أمريكا تسمع أصوات الشجب والإدانة لسياساتها، وبينما هي ما زالت تتخبط في مجدها الذاتي المغرور وقوتها العسكرية، فقد تضاءلت حدود تأثيرها كثيراً، لدى

الولايات المتحدة القوة العسكرية التي تؤهلها لشن الحروب، لكنها فقدت صدقها في الوقت الذي يظهر فيه أنها تحتاج إلى القدرة العسكرية الإنسانية، حتى تحتل العراق على نحو آمن. ومع تضاؤل صدقها سوف تضعف أيضاً مناطق تأثيرها، سوف يجبر العراق في النهاية كلا الولايات المتحدة وبريطانيا على الخروج من أراضي بلاد الرافدين التاريخية، وعلى ترك حقول النفط العراقية.

في شباط/فبراير من عام 2003م أصرّت فرنسا وروسيا والصين من بين دول عدة على أن يعطى المفتشون وقتاً أكبر، حتى يكون هناك حل سياسي، وعلى زيف ادعاءات بريطانيا وأمريكا من أجل غزو العراق.

وفي حزيران/يونيو من عام 2003م حذرت إيران الولايات المتحدة من التدخل في شؤونها الداخلية، كما أكدت إيران على حقها في امتلاك التكنولوجيا النووية، تماماً مثلما تملك أمريكا وروسيا هذا الحق، وقد كان هناك المفتشون النوويون، تماماً كما كانوا في العراق، لم يجد المفتشون شيئاً في العراق غير حرب كانت تنتظر شنها على كل الأحوال، هل هناك سباق في إيران للحاق بما فعلته كوريا الشمالية وبالقوة نفسها؟، في تشرين الأول/أكتوبر 2003م خضعت إيران دبلوماسياً لمطالب الأمم المتحدة، لكن مع حلول عام 2007م أعلنت إيران عن حقها في السعي وراء برنامج نووي مع العقوبات والتهديدات بالتدخل العسكري الأمريكي، وكررت إيران هذا الحق في عام 2008م مع العقوبات، وهكذا فإن تأثير إيران قد ازداد فعلاً.

وعندما يتعلق الأمر بالسيطرة على العالم، يجب أن نتذكر أن نابليون وهتلر أخفقا في تحقيقها، وكان جنكيز خان هو الوحيد الذي حافظ على نفوذه الكبير مئتي عام، لكنه لم يسيطر على العالم إلى الأبد.

ألا ترى الولايات المتحدة وبريطانيا أنهما تفقدان السيطرة على الأراضي، التي كانت سابقاً تخضع لنفوذهما؟، إن مناطق تأثير كلتا

الدولتين تتقلص بسرعة، إن التحالف الذي افتخرت به هاتان الدولتان كان دولاً ذات تأثير محدد، ولم تعوض فقدان الدعم، الذي تمثل في غياب الدول المؤثرة في الساحة الدولية.

إن القيادة الملهمة هي تلك التي تملك القدرة على جمع الدعم الشعبي القوي والمنطقي، والتي تدرك وتسمع صوت الشعوب أيضاً، وقد قال الرئيس الأمريكي السابق وودرو ويلسون: «إن حقبة القائد يجب أن تستجيب لصوت الشعوب»، وأنا أقول إنه إذا عدت الولايات المتحدة نفسها قائداً دولياً، يجب أن تستجيب أذنها لأصوات شعوب العالم قاطبة.

لقد شجبت جنوب إفريقيا التي ترأس مجموعة دول عدم الانحياز بصراحة السعي الأمريكي للسيطرة على العالم، وبدأت فرنسا وروسيا وألمانيا بسحب دعمها للسياسة الأمريكية البريطانية في «حرب النزوات» والحرب التي تبنى على المعلومات الاستخباراتية الزائفة والمريبة، كما تتردد أوروبا والاتحاد الأوروبي معها في الموافقة على السياسة الأمريكية، وإذا كانت بعض الدول توافق على هذه السياسة، فهي لا تمثل رأي الشعوب ومواقفها، وكما سيدرك قريباً قادة أوروبا ودول الاتحاد السوفييتي السابق، فإن الهوية الوطنية تبقى العامل الأهم في قلوب شعوب كل دولة على حِدة، ولن ينكر أحد هذه الحقيقة لمصلحة الولايات المتحدة، لا يريد الأوروبيون الأنظمة الدفاعية الأمريكية في بلدانهم، وفي غضون خمس سنوات فقط تفكك التحالف الأمريكي في العراق، حتى البريطانيون غير مستعدين لأن يكونوا تابعين لأمريكا، ومع ترك بلير لمنصبه فإن زعيم حزب العمل جوردن براون يمثل تماماً هذه النظرة الجديدة، لقد انسحبت القوات البريطانية من البصرة، وهي مسألة وقت فقط لكي تنسحب هذه القوات برمتها من العراق، أما رؤساء وزراء اليابان وأستراليا وإسبانيا، الذين دعموا السياسات الأمريكية، فقد خسروا الانتخابات، لأن الناخبين كانوا واثقين من أن

الانسحاب من العراق هو العامل الوحيد الذي يؤهل أي حزب جديد للفوز في الانتخابات، ويعارض رئيس الوزراء الروسي بوتين والصين أيضاً الخطط الأمريكية لنشر أنظمة الدفاع الصاروخية في أوروبا.

بدأ الغزو على العراق في العشرين من آذار/مارس عام 2003م، وعرضت وسائل الإعلام الغربية بفخر قاذفات القنابل وصواريخ توماهوك والصواريخ البعيدة المدى، وأعطتنا درساً في كيفية إدارة حرب من الطراز الأول من الأمريكيين والبريطانيين، ومنذ ذلك الوقت بدأ انهيار الولايات المتحدة.

وها نحن نسوق مثالاً من القرآن الكريم عن المصير التاريخي لشعوب عادٍ وثمود، وهي تشبه في غرورها وفخرها بمعالمها العظيمة الولايات المتحدة وبرجي التجارة العالميين، وخاصة ما يتعلق بسعي الطرفين لتحقيق «القوة المطلقة»، ويعكس تفاخر شعوب عادٍ وثمود واستمتاعها بتفوق قدرتهما العسكرية تفاخر الولايات المتحدة اليوم، وسوف
تجدون في الآيات القادمة من القرآن الكريم تشابهاً كبيراً مع الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد ذُكِرت شعوب عادٍ وثمود في «سورة الأحقاف»، ومن المهم جداً أن يدرك الغرب قدر هذه الشعوب ومصيرها النهائي، لقد استمتع كلا الشعبين بالغنى والقوة:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الـلـه وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾، (سورة الأحقاف، الآية 26).

لقد عصى شعب عاد رسل الـلـه سبحانه، وقد ناشدهم رسول الـلـه هود أن يخافوا الـلـه سبحانه ولامهم على ما كانوا يفعلونه:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ {128/26} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ {129/26} وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾، (سورة الشعراء، الآيات 128-129-130).

استجاب شعب عادٍ بغرور، وأعلنوا أنه لا يجب تحذيرهم، كما ادّعوا أنهم حُذِّروا من قبل، ورفضوا هذه التحذيرات بازدراء، لقد رفضت عادٌ الاعتراف كما قال رسول اللـه ﷺ هود: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللـه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، (سورة الأعراف، الآية 69).

تماماً كما يصرح العلمانيون والملحدون المعاصرون اليوم، فقد صرح شعب عاد معلنين بأن هذا الفعل كان عادة آبائهم وأجدادهم، وأنه لم يكن هناك إله واحد، أو يوم قيامة، أو لن ينزل عليهم غضب اللـه: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، (سورة الشعراء، الآية 138).

ويذكّرنا القرآن الكريم بالتالي:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، (سورة الشعراء، الآية 139).

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللـه الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾، (سورة فصلت، الآية 15).

ربما يجب على الولايات المتحدة وبريطانيا ملاحظة الآية الكريمة التالية، التي تذكر التحذير الذي أطلقه نبي اللـه صالح لشعب ثمود، وهم من خلفوا قوم عاد بعد أن دمرهم اللـه سبحانه وتعالى:

﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللـه وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾، (سورة الأعراف، الآية 74).

لكن شعب ثمود رفضوا الأخذ بتلك النصيحة، وكانوا مسرفين ومغرورين:

﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، (سورة الشعراء، الآية 152).

مثل عاد رفض شعب ثمود الاستماع لتحذيرات رسول اللـه ﷺ صالح:

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ {66/11} وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {67/11} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ، (سورة هود، الآيات 66-67-68).

لقد شهد شهر شباط في عام 2002م فيضانات مدمرة، ضربت المملكة المتحدة، ومع حلول اليوم الحادي عشر من هذا الشهر دمّرت الفيضانات عشرة آلاف منزل، كما فاضت عشرات الهكتارات من الحقول في الوقت الذي دعت فيه شركات التأمين الحكومة إلى العمل لمنع حدوث تلك الفيضانات، كم من البيوت البريئة في أفغانستان، قبل حدوث الفيضانات بفترة قصيرة، دمرتها الصواريخ والقنابل البريطانية؟، ألا يجب أن نتوقف هنا لنتفكر؟، شهد شهر تشرين الأول 2002م عواصف عنيفة، ضربت بريطانيا، كما عانت الولايات المتحدة الأعاصير المدمرة أيضاً، ومع حلول حزيران من عام 2003م، ضرب 83 إعصاراً الولايات المتحدة بعد بدء فترة قصيرة من غزو العراق، لم يتوقف الغزو، وفي الوقت نفسه اكتسحت الأعاصير الوسط الغربي من الولايات

المتحدة، وضُربت مدينة أوكلاهوما في التاسع من حزيران/يونيو عـام 2003م، وعانـت إسبانيا، وهي التي كانت عضواً في التحالف، فيضانات مـدمرة في الفـترة نفسـها، كـما وصــل إعصــار إيزابيــل إلى العاصــمة الأمريكيــة واشــنطن في أيلـول/سـبتمبر 2003م، ووصلت الخسائر المادية إلى تريليونات الـدولارات، وبقيـت ملايـين المنـازل في المـدن التي ضربتها الأعاصير مـن دون كهربـاء، ومـع حلـول عـام 2008م كـان أكـثر مـن 1000 إعصار قد ضرب أمريكا، ولم يكن العام منتهياً بعد.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَـاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَـذَابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ ، (سورة فصلت، الآية 16).

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾، (سـورة الملك، الآية 17).

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْـتَحَبُّوا الْعَمَـى عَـلَى الْهُـدَى فَأَخَـذَتْهُمْ صَـاعِقَةُ الْعَـذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾، (سورة فصلت، الآية 17).

لقد دُمّر قوم لوط أيضاً بسبب عنادهم وتكبرهم:

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ ، (سورة الشعراء، الآية 173).

وفي الكتاب المقدس ذُكِر أصحاب الأيكة، الـذين لم يطيعـوا رسـل الـلــه سـبحانه، وهكذا نزل غضب اللـه عليهم:

(6*يُمْطِرُ عَلَى الأَشْرَارِ فِخَاخاً نَـاراً وَكِبْرِيتـاً وَرِيـحَ السَّـمُومِ نَصِيبَ كَأْسِـهِمْ. 7*لأَنَّ الرَّبَّ عَادِلٌ وَيُحِبُّ الْعَدْلَ. الْمُسْتَقِيمُ يُبْصِرُ وَجْهَهُ). المزمور 11: 6- 7.

شهدت أستراليا في كـانون الأول مـن عـام 2002م حرائـق غابـات كبـيرة، وسُــوّيت الكثـير مـن المنــازل بـالأرض، إذاً هنـاك أحـداث لا يمكــن فيهـا التحالفـات العسـكرية والخـداع أن تكـون هـي المسـيطرة، لا يمكـن أي

حكومة إنسانية أن تسيطر على القوى الطبيعية، التي تهاجم منطقة ما بشدة ومن دون أي ندم، لقد احترقت مناطق شاسعة من كاليفورنيا الأمريكية في تشرين الأول/أكتوبر 2003م، واكتسحت حرائق الغابات آلاف الفدانات، وعندما قاربت نهاية هذا الشهر، كان آلاف المنازل قد دمرت وآلاف أخرى معرضة للخطر، ومع حلول منتصف شهر تشرين الثاني/نوفمبر زال 3500 منزل، ولم يتمكن 8000 إطفائي من وقف حدة انتشار الحرائق أو تخفيضها، وهكذا واجهت القوة العظمى في العالم الإذلال والإهانة ومازالت، ويوضح القرآن الكريم سلطة الـلـه سبحانه وقوته في إيقاع العقوبة على الأمم بالقوى الطبيعية، التي تعد عبرة وتحذيراً شديداً، ومع ذلك، فإن هذه العقوبة يتبعها إعطاء مهلة، فالـلـه سبحانه يحذر، ومن ثم يمنح بني البشر الوقت.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾، (سورة الحج، الآية 48).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. (سورة الشعراء، الآية 189).

يقول عبد الـلـه يوسف علي في شرحه للآية السابقة إنه ثار بركان في هذا اليوم، حيث تطاير الرماد والحمم والجمر من البركان، وتبعه هزة أرضية.

إذاً تظهر هذه الآية تحذيراً ذا اتجاهين، الأول أن العقوبة قادمة، والثاني أن هذه العقوبة ستقع على نحو مفاجئ.

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، (سورة الشعراء، الآية 202).

يشهد التعامل الغربي مع القرآن الكريم تعاملاً علمانياً واضحاً تجاه المسيحية والإسلام من حيث إنكار وجود الـلـه، وعزو الخوف من نار جهنم إلى سحر الأوّلين والقصص القديمة.

من المهم للمسيحي الجاهل بما يحدث وأتباع الأديان على نحو عام أن يكونوا مدركين لأفعال قادتهم، ليس هناك أي شيء أكثر وضوحاً من الآيات التالية:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا {11/74} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا {12/74} وَبَنِينَ شُهُودًا {13/74} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا {14/74} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ {15/74} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا {16/74} سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا {17/74} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ {18/74} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {19/74} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {20/74} ثُمَّ نَظَرَ {21/74} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ {22/74} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ {23/74} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ {24/74} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾، (سورة المدثر، الآيات من 11 إلى 25).

إنّ الأصدقاء الحقيقيين لإدارة بوش هم الإسرائيليون والإدارات التنفيذية لشركاء التحالف وقسم من الشعب الأمريكي والعنصريون البيض في العالم، أما ذوو الضمائر الحية والعقل فلا يدعمون إدارة بوش، صحيح أن جورج بوش لا يحتاج إلى هؤلاء، لكنه في حاجة إلى الـلـه سبحانه وتعالى، لقد أخفق فرعون وقيصر ونابليون وهتلر، هل يمكن الولايات المتحدة وحلفاءها أن ينجحوا في حرب على الـلـه سبحانه؟.

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ {45/52} يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ {46/52} وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، (سورة الطور، الآيات 45-46-47).

يذكّرنا الوعد القرآني بأنّ الـلـه سبحانه وتعالى لديه القدرة على إيقاع قصاصه بوسائل كثيرة، أولاً بوساطة المؤمنين، وثانياً بأفعاله الخاصة، التي تقضي بالتدخل من وقت لآخر، وأخيراً يوم القيامة.


@Ahmedyassin90

الفصل السابع

الطرق البنّاءة والمسالمة إلى الأمام

إذا سمحنا لهذا الجنون الغربي، وهذا الغضب الجائر بالاستمرار من دون مقاومة، فإن شعوب العالم هي التي سوف تتحمل العواقب، لا شك في أن الحكومة ضرورية، لكن من الضروري أيضاً لنا أن نراقب هذه الحكومة على الدوام، يجب عدم السماح للحكومات بأن تكون حرة في التحكم بمصير البشرية، ونحن لا نضع أرواحنا في أيدي خبراء بالعدالة، لكن بين أيدي مجموعة مجهولة من البشر، يحترفون السياسة مهنة، ولديهم طموحاتهم الشخصية الخاصة، ونحن لا نعلم مدى تعقيد هذه الطموحات، وليس لدينا رؤية ببرامجهم الخاصة، ومن المعروف أن الوثنيين قد ارتكبوا إثماً عندما عبدوا الأصنام، لكن من المؤكد أن الأسوأ لا يكمن في عبادة الدول وحسب، ولكن في عبادة القادة أيضاً، نعم نحن نعبد الدول والقادة البشريين، عندما نكون مستعدين للموت في سبيل عَلَمٍ ما، حتى لو كان هذا الموت خطأً أو صواباً، وعندما نصدق كل كلمة، يقولها الرئيس أو رئيس الوزراء، كأنها كلمات إلهية، نحن نلجأ إلى قلاعنا، لكن ألسنا وثنيين؟، إن لم لكن لدينا أي نية للإيمان بالـله سبحانه، أليس الإيمان بتمثال أو حجر أكثر أماناً من الإيمان بالبشر؟، ربما كان الوثنيون في الماضي أكثر أماناً من وثنيي اليوم، الذين وضعوا إيمانهم لدى مجانين السياسة.

ويحذّر القرآن الكريم قائلاً:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ {10/68} هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ {11/68} مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ {12/68} عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ {13/68} أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ {14/68} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾، (سورة القلم، الآيات من 8 إلى 15).

لماذا علينا أن نصدق دعاية مبنية على الكذب والخداع والتشهير من دون أي دليل، والعنف المبني على الاعتداء، وليس على الدفاع عن النفس، والاعتداء العنيف والقاسي مثل الاستخدام غير المميز للصواريخ البعيدة المدى، والقنابل ذات الألفي باوند، والقنابل العنقودية المصممة لقتل الحيوانات والأطفال سنوات كثيرة قادمة؟، لقد تمكنت الولايات المتحدة وبريطانيا من بناء آلة الحرب الضخمة بفضل غناهما بالثروات، وسوف يصبح أبناء الدولتين عداد جيوشهما.

عندما يطالب دعاة التعايش السلمي هاتين الدولتين بأن تكونا ملتزمتين الدين والأخلاق، تجيب الولايات المتحدة وبريطانيا بالتالي: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾، أليست الإدارة الأمريكية هي الموصوفة في الآيات السابقة؟، ألا نلاحظ الغرور والتكبر الذاتي والدعاية الزائفة لتلك الدولتين، إضافة إلى الظلم والانغماس في ارتكاب الآثام؟.

ألا نخدع أنفسنا عندما نؤمن بما يقوله الإعلام؟، عندما تصبح وسائل الإعلام الموالية للحكومة مصدر المعلومات التي نستقيها، إذاً فنحن نصنع من المعلقين والمحررين رجال الدين الصادقين، فهم الذين يبنون لنا الدين، الذي يبغونه يومياً، وهم الذين يخططون ما الذي يجب أن نؤمن به.

هل يؤمن الشعب الأمريكي فعلاً بأن شعوب العالم تتعاطف معهم، وأن الولايات المتحدة مدعومة من هذه الشعوب فقط بسبب مأساة برجي التجارة العالميين؟، لقد طاف بلير حول العالم لحشد الدعم، ربما يقر بعضهم بغرابة هذا الموضوع، عندما تحل مأساة في بيتٍ ما، فإن الأقارب يحضرون للدعم المعنوي، وليس على أهل البيت أن يذهبوا إليهم، لم تكن الباكستان شريكاً طوعياً لهذا التحالف، ولم يكن لديها خيار آخر، يستطيع الرئيس الباكستاني أن يقول ما يحلو له، لكن شعبه

لا يحب أمريكا، أما نحن فنستطيع سماع أصوات الناس، ولا يظهر رؤساء كثر الصدى الذي تحدثه مشاعر شعوبهم، إن هؤلاء القادة يظهرون ما تريده الإدارة الأمريكية، كم يبلغ عدد المتعاطفين مع الولايات المتحدة بعد قصف أفغانستان؟، بعد أن صرح نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني عن السجناء الأفغان: «إنهم يعاملون على نحو أفضل مما يستحقونه»، أي محامٍ أو مشرّع أو ناشط إنساني أو مؤرخ أو فيلسوف أو طبيب أو عالم نفسي أو عالم اجتماعي، مثلاً سيكون مستعداً لأن يسمي ديك تشيني رجلاً نبيلاً؟، عندما يكرر بوش مقولة إن الولايات المتحدة مكروهة، لأنها تدافع عن الحرية والديمقراطية، ومن ثمّ يحرم في الوقت نفسه الحق في أن يكون للأجانب محاكمة مدنية في أمريكا، ويخضعهم لمحكمة عسكرية، فهل يمكن فعلاً أن نسأل الجميع إن كانوا يتعاطفون مع الأمريكيين؟، أي إنسان جنوب إفريقي غير أبيض يستطيع التعاطف مع إدارة بوش، عندما تمثل العنصرية والمثل الديمقراطية الانتقائية؟، تماماً مثلما كانت ديمقراطية نظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا للبيض فقط، فإن ديمقراطية الولايات المتحدة هي للأمريكيين فقط، وعلى النقيض سياسة ديكتاتورية تجاه بقية دول العالم، ومنها الدول ذات السيادة المستقلة، إن ادعاءات هذه الدولة بالديمقراطية ادعاءات كاذبة، كما لاتمثل الحكومات الموالية لأمريكا في العراق وأفغانستان طريق الديمقراطية لكنها طريق للسيطرة الاستعمارية، إن دعم الولايات المتحدة وتعاونها المستمرين مع إسرائيل في احتلال بقية الأراضي الفلسطينية، إضافة إلى قتل الرجال والنساء والأطفال هي أفعال توضح للعقل أننا نشهد العمل الإجرامي على مستوى دولي، إذا كان صدام حسين مذنباً فعلاً (لقد أجرى محاكمته مجموعة من الخارجين على القانون، ولم يُحاكَم في محكمة شرعية)، فهذا الذنب صغير مقارنة بذنب بوش وبلير وجماعتهما.

إنّ التحالف الأمريكي البريطاني هو الإرهاب عينه، وقد كان الأمر باغتيال صدام حسين وأبنائه وعائلته ومسؤولي الدولة سابقة في ذاتها، إذاً الآن، أي دولة أو حكومة لديها الحق في اغتيال قيادة دولة أخرى من أجل «قضية عادلة»، ليست الولايات المتحدة وبريطانيا الدولتين الوحيدتين اللتين تملكان «قضية عادلة»، لقد أسقطت صواريخ توماهوك والصواريخ البعيدة المدى القانون الدولي، وشرّعت قتل القادة والأفراد، لقد أصبح رعاة البقر الأشخاص الشريرين، وتحول المارشالات الأمريكيين القساة إلى أشخاص أشرار عتاة.

إنّ معارضة هذا الانحراف تتمثل في المعارضة الجسدية الحالية النشطة، التي لا تعد مثالية أو كافية، والحاجة إلى مخاطبة المعارضة السلمية المنسجمة، التي لا توافق على اضطهاد الإسلام والمسلمين هي في الواقع طلب عاجل، حتى لا تستحيل على الوصول إلى هؤلاء الناس، الذين تجذبهم خلايا المقاومة التي تستخدمهم وسيلة للانتقام من الأعمال الوحشية، التي ارتكبت ضد المسلمين، لا شك في أن الولايات المتحدة وحلفاءها قد سببوا حرب الانتقام تلك، وقد حذرتهم أوروبا والفاتيكان متمثلاً بقداسة البابا يوحنا بولس من هذه الحرب.

لا تخدم الانفعالات والصياح والتنديدات أي هدف واقعي، لأنها لن توقف جيوش المعتدين والشهداء وحركات حرب العصابات، تسعى الولايات المتحدة وإسرائيل إلى خدمة مصالحها الشخصية، ولذلك فإن جهداً منسقاً على أساس فكري هو الوحيد الذي يمكنه أن يقلب الآية ضد هاتين الدولتين، ويجبرهما على قبول الحلول السياسية والأخلاقية في العالم، وحتى عندما ننقذ أنفسنا، وكل من لديه ضمير، يجب علينا أيضاً أن ننقذ الأمريكيين، وما تبقى من تحالفهم حتى من أنفسهم.

لقد أخبرنا وجه كولين باول بأنه لم يستطع الاستمرار في الإيمان بدعايته الكاذبة، ولم يجرِ استقباله في الرياض بأكاليل الورود والزهور،

بل بهجومٍ انتحاري نفذه تسعة أشخاص، كما وصل باول إلى روسيا، حيث طالعته الأخبار بعمل فدائي آخر نفذته امرأة من الشيشان، وسقطت حكومات دعمت التحالف الأمريكي، مثل الحكومة الإسبانية، حيث أُبعدت إما بداعي الخوف أو الضمير، ويتراجع شركاء التحالف الواحد تلو الآخر، فقد رحل طوني بلير، ووضع خليفته جوردن براون بشكل فوري خطة للانسحاب من العراق.

وكما يحلو للنقاد أن يقولوا، توقع بعض منهم أنه بعد غزو العراق سوف تبدأ عمليات الانتقام في غضون عشر سنوات، وقال بعضهم الآخر إن الانتقام سيحدث أبكر من ذلك، وهذا ما حدث فعلاً على خلاف ما توقع الكثيرون، ومن لا يشاهد ذلك فهو لا شك أعمى عن الحقيقة، والإدارة الأمريكية إما عمياء وأما طائشة، فالوقت قريب جداً لأن يصبح كل أمريكي مسجوناً في وطنه وكل بريطاني أو أسترالي مجبوراً على البقاء ضمن حدود دولته، وشركات الطيران التي وصلت إلى حد الإفلاس سوف تتدهور على نحو أكبر حتماً، ما فائدة كل ثروات العالم، عندما لا يستطيع الواحد منا أن يغادر حدود دولته بسبب شدة الخوف؟.

نحن ندرك أنه ليس صحيحاً سياسياً القول: «لقد كنا مخطئين، ونحن آسفون، إذ أخفقنا إخفاقاً ذريعاً»، لكن تستطيع الدول أن تقلب العالم رأساً على عقب على النحو الجيد، عندما تكون مستعدة للعودة عن أخطائها، إلى متى سوف تستمرون في الاعتقالات بحجة ربط أشخاص معينين «بهجمات إرهابية»؟، لا يحل هذا الفعل أصل المشكلة، لم يجرِ وقف الجريمة المنظمة، من المؤكد أنكم قبضتم على آل كابوني، لكن هل جرى محو الجريمة المنظمة منذ ذلك الوقت؟.

إنّ الشر حقيقي، وهو يصبح متجسداً في الرجال والنساء، الذين اختاروا بإرادتهم الحرة هذا الطريق غير الإنساني.

ونحن، إذ نعلم هذه الحقيقة، يتحتم علينا أن نسعى إلى سلامة المعرفة الروحية في اعتناق الطريق الصحيح في الحرب على هذا الشر، سوف ترشدنا الصلاة إلى برنامج نشط، نستطيع خلاله أن نخلق جواً بين محبي السلام المسيحيين والمسلمين، وكل من أراد أن يشارك في هذه القضية العادلة، وذلك حتى نشكّل أخوة إنسانية برعاية إله واحد، واضعين بعيداً الخلافات العقائدية وماشين معاً قوة متماسكة ضد الشر، إن الطريق الذي تخطوه الجماهير لن يكون تظاهرات في الشوارع، لكنه طريق يرتبط بالانتخاب والقوة السياسية، لكي نضمن أن القادة والحكومات لن تبيع بعد اليوم نسخاً قبيحة من الديمقراطية والعلمانية بأنها عقيدة دينية، لكنها سوف تخضع لإرادة الله سبحانه لتحقيق التوازن بين العدالة الوطنية والدولية، إن قوة الجماهير تلك سوف تقرر هذه العدالة، ولن تسمح أبداً للديمقراطية أن تخلق ديكتاتوريين مؤقتين، ليسوا بأفضل من الديكتاتوريين الأصليين، الذين ينددون بهم بنفاق، يجب عزل مرتكبي الشر، ويجب ألا نسمح بتوالد الحكومات الشريرة، ونحن، إذ نصوّت للأحزاب المريبة نصوّت، في الحقيقة لسياسات مريبة.

يجب أن ندعم الحكومات الخيّرة أينما كانت، ويجب أيضاً أن ندعمها جبهة واحدة من المسيحيين والمسلمين، لأنه علينا أن نتعامل مع الحكومات جبهة واحدة بعدّها حقيقة واقعية وملموسة، وبهذه الطريقة فإن قاعدة الدعم الحكومي سوف تسمع على جميع مستويات الحكومة، ليس ضرورياً أن تكون الحكومة العلمانية سيئة حرفياً، فمادامت تقوم بتحقيق توازن العدالة، الذي تحدثنا عنه سابقاً بين المؤمنين وغير المؤمنين، يمكن أن يكون هناك تسوية قيّمة وجوهرية، يجب أن يتفاعل المسيحيون والمسلمون في الساحة السياسية، ويجب عليهم أن يصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الحكومة، ويجب أن يكون تحويل السياسيين إلى عقول تفكر في المبادئ الأخلاقية والدينية هدفاً في النهاية.

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى {1/87} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2/87} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾،

(سورة الأعلى، الآيات 1-2-3).

بهذه الطريقة يمكن المؤمنين وشركاءهم في هذا الميثاق أن يعملوا بتناغم غير مسبوق في التاريخ، كما اختار الـلـه سبحانه لهم، لن يكون هناك من يقول إن الأعراف الاجتماعية السياسية قد استنفذُت، وإن الديمقراطية فقط، كما يراها الغرب الاستعماري، هي النظام السياسي الصحيح؟، صحيح أن المهرجين يرضون بالعيش تحت خيمة السيرك، لكن ليس الجميع مهرجين.

يجب علينا ألا ننساق وراء إرادة الغرب، الذي لديه تاريخ مؤسف من الظلم، يجب ألا تقودنا الأمم المتحدة، التي تملك تاريخاً مؤسفاً من المعايير المزدوجة، لقد كان المسلمون أول من أنشأ الجامعات، عندما كان الغرب تحكمه قادة الحرب الهمجيون، يجب ألا يقودنا في هذا القرن ميثاق الحقوق الأمريكي، الذي لا يمتد عملياً إلى ما بعد حدود الولايات المتحدة، ولا يشمل الناس الملونين ضمن الحدود الأمريكية.

يجب أيضاً أن نعلن أنه حان الوقت لأن يحدَّد دستور دولة ما ضمن المفهوم الواسع لديمقراطيةٍ صحيحة وواضحة مع ضمانات دستورية، تحمي المجموعات الدينية والأعراق والحضارات المختلفة بطريقة واقعية.

لقد حان الوقت لأن نناقش طبيعة الديمقراطية، ونجعلها منسجمة مع العدالة على المستويات الرئيسة، لكي تحقق التوازن بين حاجات جميع اللاعبين على المستويات الوطنية والدولية، عوضاً من أن تكون منسجمة مع الديكتاتوريات المؤقتة القادرة على تدعيم أوضاعها إلى ما لا نهاية، إنّ تبسيط الديمقراطية، التي تعطي الحزب الذي يحصل على أكثرية الأصوات قوة الحكم المطلقة بناء على وعود قلما تتحقق على الأرض هو استهزاء بجوهر الحكومة الديمقراطية.

إنّ الديمقراطية التي تسوق لها الحكومات بأنها من الشعب وإلى الشعب لم تكن على قدر المسؤولية قط، فهي تخفق على الدوام، ويجب أن تبعث مرة أخرى إلى المختبرات السياسية، ليعاد تجريبها، لأنها في حاجة شديدة إلى إعادة التشكيل، ويقع الخطأ في حقيقة أن الوظيفة الديمقراطية للحكومة لم يجرِ صياغتها قط ضمن شروط قانونية ملزمة، وهي تظل فلسفة تباع على أنها منتج عملي، والنتيجة أن الحكومة المنتخبة ديمقراطياً لا تحتاج إلى أن تزعج نفسها، وتصبح ديمقراطية فعلاً، قد يقال إن مبادئ الديمقراطية مجسدة في الدستور، لكن ليست هذه الحقيقة، فالحقوق والضمانات الدستورية شيء بعيد جداً عن الوظيفة الديمقراطية الرئيسة للحكومة، حتى إنها تستطيع في بعض الأحيان أن تحجب قرارات معينة للحكومة، وتعد بعضها الآخر مناقضة للدستور، وهكذا فهي لا تستطيع أن تجبر الحكومة على العمل ديمقراطياً، لأن مفهوم الديمقراطية ذاته لم يجرِ تعريفه أو الإعلان عنه بأنه قانون ملزم للحكومة، نحن ليس لدينا أي فكرة عن ماهية الديمقراطية، فالكثير من الناس يربطونها بالرأسمالية، وآخرون يساوونها بحكم الأكثرية، ومع ذلك يساوي بعض الناس الديمقراطية وحق أي مواطن، في أن يصوّت لحزب ما فقط، لقد كانت الحرية والديمقراطية شعارات للولايات المتحدة، وأصبحت جنوب إفريقيا مغرمة بالديمقراطية على نحو أكبر بعد تحريرها من نظام التفرقة العنصرية، لكن العنصريين البيض أصبح لديهم ديمقراطيتهم الخاصة، مثلما تملك الولايات المتحدة سياستها الديمقراطية الوطنية الخاصة وسياسات ديكتاتورية لبقية دول العالم، إنّ هذا لأمر غريب، وتدعي الأمم المتحدة أيضاً أن الديمقراطية كأنها بقرة مقدسة، لكن المشكلة هي أن هذه البقرة حيوان جامح غير مقدس إطلاقاً.

لا يمكن أن نساوي الديمقراطية بحكم الأكثرية، يجب أن يكون السعي لتحقيق الحكومة الديمقراطية تجسيداً لمصالح جميع

المجموعات الرئيسة في بلد معين، ومنها المجموعات الدينية في هذا البلد، حتى إن اللاعبين الرئيسين يجب أن يشتركوا في الحكم على المستويات التنفيذية، وبهذه الطريقة فإن المبدأ الرئيس للديمقراطية في أن تكون الحكومة من الشعب وإلى الشعب يصبح حقيقة، وفي الحاضر فإن الحكومة المجسدة في حزب ما هي التي تتلقى أكثرية الأصوات، ومن ثمّ يتوقع لهذا الحزب أن يحكم جميع الناس، حتى أولئك الذين لم يوافقوا على سياساته، سوف يقوم هذا الحزب أولاً وعلى نحو رئيس برعاية مصالح قاعدة دعمه، ليست هذه الديمقراطية، وليست حكم الأكثرية، لأن الحزب الحاكم ليس ملزماً قانونياً أن يفي بوعوده الانتخابية للأكثرية، ولا يحتاج أيضاً إلى أن يجري استفتاءات شعبية في القضايا الرئيسة، وهو يستطيع أن يشنّ حرباً ضد أي دولة من دون استفتاء شعبي، ويستطيع القيام بأي شيء مادام يسيطر على الحكم، أما الجيش فهو تحت خدمة هذا الحزب، لكي يساعده على البقاء في السلطة، وهناك مجموعة من القوانين التي يستطيع استخدامها أو إساءة استخدامها، لكي يسكت المعارضة، ولا تعد الوعود الانتخابية الزائفة، أو تلك التي لم تتحقق على الأرض، هامة أبداً.

يجب على الحكم أن يعرَّف على نحو ملائم فيما يتعلق بوظائفه الإدارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويعد فصل القوات المسلحة، ومنها وكالات تطبيق القانون عن السلطة الإدارية أمراً هاماً، لكي نضمن أن الشعب هو من يدير الدولة، ويتحكمون بقادة الدولة على نحو خاص، ومن سوف يسيطر على الجيش؟، إنّ الجيش مؤلف من جميع المجموعات العلمانية والثقافية والدينية في الدولة، وتتساوى قيادة الدولة مع الإدارة الأساسية، التي يزودها الخبراء الذين سوف يديرون الدولة، إذاً الإدارة تعني تماماً ما قلنا سابقاً، وعلى نحو عام فإن الإدارة التنفيذية هي التي ستحدد القرارات التنفيذية، وسوف تلغى قوة الأحزاب وحكم الأكثرية، وسوف يجري تمثيل جميع قطاعات الشعب في

الحكومة، علاوة على ذلك يجب أن تكون كل القوانين منسجمة مع المنفعة الوطنية والدولية أيضاً، وأي قانون أو فعل غير منسجم مع المصلحة الدولية يجب أن يصبح مناقضاً للدستور، وبهذه الطريقة لن تكون أي دولة قادرة مثل الولايات المتحدة على أن تمرر مشروع قانون، يجيز الإطاحة بدولة ذات سيادة، ما يؤدي إلى تشجيع الإرهاب والخيانة وتمويلها ضد الدولة ذات السيادة، كما حصل مع العراق، وعلى نحو مماثل يجب أن تكون الدولة ملزمة التوقيع والتزام معاهدة كيوتو، التي تدعو للحد من التلوث وإزالة خطر الاحتباس الحراري مثلاً.

وإذا كانت القواعد مرتبطة بالمصلحة الوطنية أو الدولية، فإن «النظام والتكافؤ» مصطلحان حيويان في السعي إلى تحقيق العدالة الحقيقية، وتدور مصطلحات مثل الاستقرار، وضبط النفس، والصبر، واللطف، والعطف، وتوازن القوى، وتستقى كلها من المصطلحين السابقين، يجب أن تكون العدالة للجميع واقعية، ويجب على هذا المصطلح أن يرتقي فوق أي حدود سياسية أو جغرافية.

﴿ ۞ إِنَّ اللـه يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾، (سورة النساء، الآية 58).

إنّ العدالة بين البشر أنفسهم، وعلى القائد أن يحاسِب شعبه، ويتحمل المسؤولية أمامه، يجب أن يكون القرار مبنياً على العدالة، والحكم العادل يأتي بفضل الشعب، الذي رهن سعادته بثقته بالحاكم، ويرى الحكم الصالح أن القوة يجب أن تترسخ في الشعب.

يجب على أي هيئة دولية ألا تسمح لنفسها بأن تُستخدم لتشريع الوحشية الدولية والاستعمار والنهب، على المنظمة الدولية أن تعيد تعريف نفسها وأهدافها، وتتضمن قواعد راسخة، لكي تحكم نفسها منظمة مستقلة ذات أعضاء مستقلين، يجب عليها أن ترسخ القواعد،

التي تحتوي جماح الأفعال غير القانونية وتكبحها، وعليها أيضاً أن تعد الأعمال غير الأخلاقية غير قانونية، وهذا ممكن إذا امتلكنا الإرادة الأخلاقية لفعل ذلك، وليست الإرادة السياسية كما قال كوفي عنان، حقاً إنّ الإرادة الأخلاقية هي المشير إلى الإرادة السياسية السليمة، وقد أخفق كوفي عنان في تقدير أنّ الإرادة السياسية هي العربة فقط، والإرادة الأخلاقية هي الحصان، الذي يقود هذه العربة.

لقد أنشئت منظمة الأمم المتحدة، لأننا لم نرد أن تقوم حرب عالمية أخرى، ولأننا أردنا أن نتجنب الحروب، علينا الآن أن نتعامل مع قضية الدول الأعضاء الفاسدة والمعتدية، ويجب علينا أيضاً أن نناقش الوسائل العسكرية وبعض الوسائل الأخرى لكبح جماح تلك الدول المولعة بالحروب، نحتاج أيضاً إلى أن نعالج قضية التعريف الدقيق لأسلحة الدمار الشامل مثلما يفعل المحامون، ولا نلعب ألعاباً بكلمات انكليزية غبية وتافهة، إن القنابل، التي تزن الأطنان والصواريخ، قادرة على التدمير الشامل، خاصة عند إسقاط الآلاف منها على مدينة واحدة، أم إنها ليست أسلحة دمار شامل، عندما يكون الضحايا عرباً مسلمين؟، ألن تعد القنابل نفسها أسلحة دمار شامل، إذا أُسقطت على دولة أوروبية؟، إن ممثلي هذه الهيئة الدولية يجب أن يقوموا بطريقة واعية ومثقفة، وليس كمتخلفين عقليين، إذا كانت لديهم النية في مواجهة الحقائق، إنّ الهيئة الدولية، التي سلبت أراضي فلسطين بإرادتها، وشكلت ما يسمى «إسرائيل» من دون موافقة الشعب الفلسطيني، كانت هيئة ذات صفات مريبة جداً، والهيئة الدولية التي تحافظ على الوضع الحالي مريبة على نحو مماثل، عندما تسمح هذه الهيئة لإسرائيل بأن تقصف الفلسطينيين على ما تبقى من أرض فلسطين في وضح النهار، فإن ثقتها تهوي إلى أدنى درجة ممكنة، وعندما تتهرب مدة طويلة جداً من عدّ ما تبقى من فلسطين دولة لشعبها، فليس لها أي ثقة أبداً، يجب

على الهيئة الدولية أن يكون لها الحق في إعادة تقييم قرارات أسلافها وإعادة معالجة الأمور، ويمكن أي قرار أن يلغى أو يعدّل أو يجري تجاهله، ولأنّ دولة إسرائيل لم يخلقها الـلـه سبحانه، بل خُلِقت بفعل بعض الدول، يجب على الهيئة الدولية المحترمة أن تحذر من التخلي عن شرعية إسرائيل، إذا لم توقف عدوانها، ولماذا ينقص الهيئة الدولية القواعد الدستورية؟.

إنّ الأمم المتحدة اليوم تعد خطراً على الدول الصغيرة بغض النظر عن الأعمال الخيرية التي تشتهر بها، إنها السلاح الرسمي للولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تستخدمانها لتشريع المغامرات غير القانونية والمعاملة الشيطانية للمعتقلين، واحتلال الدول الأجنبية ذات السيادة وحمايتهما للدول الاستراتيجية الصديقة، إذاً يمكن استخدام الأمم المتحدة للسيطرة على بقية دول العالم، ما عدا الولايات المتحدة وبريطانيا وشركاء التحالف، إضافة إلى «إسرائيل» طبعاً، يستطيع المدّعون الدوليون اتهام تشارلز تايلور، لكنهم لا يستطيعون اتهام بوش أو بلير، بوجود تسعين دولة صدقت المحكمة الجنائية الدولية، فمن المؤكد أنه على الولايات المتحدة الانصياع لقرار الأكثرية إذا كانت فعلاً مخلصة لمبادئ الديمقراطية، التي تدّعيها.

تستغل الدول المارقة الأمم المتحدة، لكي تجيز العدوان الدولي، ومادامت أن الدول الصغيرة مستعدة لأن تخضع للعهر السياسي والاقتصادي وسيلة للبقاء أو المنفعة المادية، التي يجنيها قادتها السياسيون، فسوف يستمر تذللها وعبوديتها للزعماء الدائمين للأمم المتحدة، فإفريقيا مثلاً سوف تظل العبد الأسود للولايات المتحدة وأوروبا، وقد بدأ فعلاً الاستعباد الدولي للمسلمين وممتلكاتهم، إن الأمم المتحدة تماماً مثل البنك الدولي، تستعبد الدول إلى الأبد، وتسلب كرامتها، وتستغلها أيضاً، لقد قام بلير وبوش بحملة من أجل حشد

الدعم لغزو العراق، وما المكافآت الموعودة، التي كانت تنتظر الدول الأخرى؟، لم ترسل إسبانيا مثلاً قواتها في أثناء الحرب، لقد أراد بوش وبلير فقط التستر على أفعالهما ضد إمكان الاتهامات بارتكاب جرائم حرب، وكان هذا التحالف بمنزلة «أمم متحدة» مارقة، أو ما يشابه هيئة دولية لإحلال صفة الشرعية، ربما سيحين الوقت لدول عدم الانحياز، لكي تشكل هيئتها الدولية أو تحالفها الخاص بها.

يمثل الهجوم على مقر الأمم المتحدة في بغداد في 19 آب/أغسطس من عام 2003م فقدان هذه المنظمة لكامل ثقتها، ولا تخدم الاتهامات المتكررة بالإرهاب أي هدف بنّاء، والحقيقة تبقى أن الأمم المتحدة فرضت العقوبات نفسها التي دمرت العراق، ومن ثمّ أخفقت أيضاً في السيطرة على الولايات المتحدة وتحالفها في أثناء غزو العراق، الذي دمر البلد وطاقاته من دون أي خطط لإصلاح منشآته المائية، أو إعادة التيار الكهربائي، أو تزويد الأمن بعد حصول الكارثة، والقائمة تطول، نحن نسمع دائماً أن الواجب يقع على القوات المحتلة لتوفر حاجات البلد، ويبقى الرأي الواجب أن الأمم المتحدة في مشاركتها في إعادة بناء العراق قد تغاضت، أو حتى صدقت غزو العراق، لأنها تتسلم المسؤوليات التي على عاتق القوات المحتلة.

لقد كان الهجوم على مقر الأمم المتحدة رمزياً، مثلما كان قتل أبناء صدام حسين، لقد جعلنا الغرب مدركين للرموز وسيلة للدعاية الكاذبة، ورأينا المرة تلو الأخرى تمثال صدام حسين، وهو يخرّب على منصته، ولم تكن هذه الرموز مزحة مضحكة للمعارضين، فنحن ننسى أن الناس لديهم المشاعر والذكاء والقدرة على استخدام الرموز، لكي يثبتوا الرأي على المستوى الدولي، إن الهجوم على مقر الأمم المتحدة ذاو مغزى أكبر من الإطاحة بتمثال أحد البشر، إن الهجوم على مقر الأمم المتحدة في بغداد، والهجوم على مقر الصليب الأحمر في تشرين الأول/أكتوبرعام

2003م يبعث رسالة عميقة، مفادها أن العراق لايحتاج إلى الغزو، أو إلى كلاب التحالف، أو المنظمات الخيرية الدولية، تقول الرسالة: «لا تجوعونا أو تقصفونا، ومن ثمّ تضمدوا جراحنا».

يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية، كما أعلن الـلـه سبحانه ووعد في القرآن الكريم:

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾، (سورة الأعلى، الآية 8).

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِالـلـه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَالـلـه سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، (سورة البقرة، الآية 256).

﴿.... لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ ، (سورة البقرة، الآية 279).

يجب على شعوب العالم أن تعيد السيطرة على مصادر السلطة والقوة، التي تتحكم بمصائرها، ثم تقوم بتحديد مسار التجانس الدولي والوطني وفق مبادئ سليمة، إذاً تقول القاعدة البسيطة إنه يجب علينا ألا نظلم.

مادامت الأمم المتحدة على مستوى أقل تنظيماً من نادٍ انكليزي لكرة القدم، ومادام أعضاء الأمم المتحدة يستطيعون شن الحروب من دون إجماع أو قضية عادلة، وشن الحروب ضد الدول ذات السيادة المستقلة، والحروب ضد المسلمين وضد الملونين، ومادامت الدول ذات النيات الحسنة تخضع أنفسها لذل الدول المتمثل في الانسجام المضحك، ماذا إذاً يجب على شعب كل دولة أن يفعل؟، ماذا يجب على الشعوب التي تعوّل على الحكم السليم، أن تفعل؟.

كيف يسمح عالمٌ مليء بالخبراء الدستوريين لهذا السيرك الدولي المؤلف من المهرجين الأشرار بأن يتبختر مثل المجانين على الساحة

الدولية، ويتبجح بأن العواقب الوخيمة تعني الغزو؟، كيف يسمح عالَمٌ مليء بالقانونيين الضليعين لهؤلاء المهرجين بأن يسلبوا أراضي الدول ذات السيادة المستقلة بحماسة غير متناهية؟، لماذا يجلسون ويسمحون لخيمة سيرك الأمم المتحدة بأن تتأرجح خلف أولئك المهرجين الأشرار، ومن ثم يقومون مثلما يقوم المهرجون تماماً بالقفز والتبختر خلف تلك الدول في خضوع واجب، إلى أن يسود الظن أن العالم قد نسي فقدانه للثقة الدستورية؟، إما تحت الضغط وأما تحت تأثير الرشاوى تنضم الأمم المتحدة بسعادة إلى الرقصة المجنونة، التي يؤديها المهرجون مرة أخرى.

من الخطير جداً أن يسمح للأمم المتحدة بالعمل على هذا النحو من دون عقوبة، على الهيئة الدولية أن تكون في وضع أفضل كثيراً من الوضع الحالي، لا يمكنها أن تستمر في امتلاك أعضاء دائمين يتميزون بقوة الفيتو، يجب أن يجري تنظيمها على نحو ملائم، حيث يكون هناك ميثاق قابل للتطبيق في محكمة دولية، على الهيئة الدولية أن يترأسها محامون دوليون أن يكون بمنزلة مراقبين ومستشارين لشرعية المشاريع التي يضعها الأعضاء، إن معنى الإنصاف الدولي والعدالة يجب أن يجري ترسيخه، وأن يجري حظر تشكيل تحالفات بين الدول الأعضاء المارقة، وإذا كان كل هذا يعني أن التحالف الأمريكي سوف يواجه بقية دول العالم، فعلى دول العالم أن تتخذ موقفاً، وتشكل هذه الهيئة الدولية من دون التحالف الأمريكي، يستطيع الاتحاد الأوروبي أن يطرد الدول الأعضاء المنحرفة، لماذا لا تستطيع الأمم المتحدة فعل هذا؟، يمكن التجارة الدولية أن تأخذ توجهاً جديداً، لكن خطوط القتال الأخلاقية سوف ترسم، لا يمكن الهيئة الدولية أن تظل بمنزلة نادي الخمسة الأقوياء، لكن يجب أن تصبح نادياً ملائماً للجميع.

لقد فقدت الشعوب الثقة في منظمة الأمم المتحدة الحالية، وعلى الدول الصغيرة أن تراجع قيمة عضويتها في هذه المنظمة، فالأمور السلبية من هذه العضوية تفوق الإيجابية.

إن تظاهر الشعوب ضد غزو العراق، ودعوة رجال الدين الحقيقيين إلى السلام وعدم الحرب تشكل إشارة إلى أن الوقت قد حان، لأن يستعيد الشعب استلام السلطة.

يجب أن نضع الاختلافات العقائدية جانباً، ونتوحد في جبهة مشتركة، تمثل حب الجار، مثلما يحب المرء نفسه، يجب أن نسعى إلى أن نصبح عطوفين وإنسانيين عوضاً من العكس، يجب أن نفكر في جميع الخيارات السلمية، لأن هناك قوة كبيرة في المقاطعات والمظاهرات الواحدة.

من الضروري أن نخاطب حكوماتنا بشأن العدالة الدولية، والحاجة إلى تقليل اعتماد الدول المارقة، يجب أن نصنع من بلادنا أماكن منتجة قدر الإمكان، ويجب أن نلحظ على نحو واضح ضرورة الانحياز إلى الدول، التي تملك هدفاً مماثلاً، يجب على قادتنا أن يتحالفوا مع الدول الصغيرة والدخول في معاهدات دفاعية وغير عدائية معها، يجب أيضاً أن ننفق على الدفاع الوطني على كل المستويات، ليس هناك أي خطأ من مُثُل عدم انتشار الأسلحة النووية، والانتشار يعني الإنتاج على نحو غزير، يجب على الدول ألا تفرط في إنتاجها من الأسلحة النووية، لكن لماذا لا يحق لبعض الدول ألا تنتج الأسلحة إطلاقاً، بينما يحق لبعضها الآخر أن تقوم بذلك؟، إذا قررت الولايات المتحدة ألا تكون عضواً في المحكمة الجنائية الدولية، فلماذاً إذاً يجب على كوريا الشمالية أن توقع اتفاقية عدم انتشار الأسلحة النووية؟، لماذا يجب على إيران أن تخضع؟، من يتحكم بروسيا، التي كانت فيما مضى العدو اللدود للولايات المتحدة؟، ألا تملك روسيا قدرات نووية، انتشرت في أراضيها السابقة، التي فقدت السيطرة عليها حالياً؟، ماذا عن الدول المارقة هناك؟، أتذكر هنا الأخبار عن نائب الرئيس الأمريكي السابق آل غور في عهد الرئيس كلينتون، وهو يقوم بجولة في الدول السوفييتية السابقة، ربما كان على غور أن يبقى في أمريكا، ربما كان قد فاز في الانتخابات الرئاسية،

وأنقذ حياة الكثير من أرواح المسلمين، عندئذٍ كان الأمريكيون سيرددون أغنية: «كم هو جميلٌ هذا العالم».

إنّ الدول الإسلامية التي تبقي على علاقتها بالولايات المتحدة، مهما كانت هذه العلاقة مُرّة وقاسية، سيكون عليها إعادة النظر في موقفها الدبلوماسي، وسوف يؤدي وجود القوات الأمريكية والقواعد العسكرية والعتاد في أراضي هذه الدول إلى جرها لمواجهات ضد المسلحين، وسيكون استقرار الدول الإسلامية مهدداً، سوف يجب عليها أن تفكر في حقيقة المشاعر المعادية لأمريكا بين شعوبها.

من الضروري أن يجري تحييد قوات المقاومة السرية بالطلب من الولايات المتحدة بمغادرة البلاد، التي تحتلها بمعاهدة في الخليج العربي مثلاً، وأن تقوم أمريكا بسحب قواتها، لتعود إلى بلادها، ليس هناك حاجة إلى أن تكون سفن أمريكا الحربية وقواتها منتشرة في كل أصقاع الأرض، وكلما جرى الانسحاب سريعاً فلن يكون هناك بعد ذلك أي أهداف للمقاومة، أو معارضة لوجود القوات، أو أي سبب للمواجهات التي سوف تخف كثيراً، وحالما أنهت أمريكا احتلالها العسكري في العالم، ستكون هذه خطوة نحو تغيير الاتجاه ووقوع الزمان والمكان الملائمين من أجل الإصلاح، وبهذه الطريقة يجري تحييد المعارضة.

سوف يكون على الجامعة العربية أن تحل قضية الحكم في العراق بمشاركة من الحزب الحاكم السابق، ويجب على الولايات المتحدة أن تطلق سراح جميع سجنائها، وعليها أن تقوم مع بريطانيا بسحب القوات.

يجب على الأمم المتحدة بالتشاور مع الجامعة العربية أن ترسل قوات حفظ سلام مختارة إلى فلسطين و«إسرائيل»، يجب ألا تستخدم القوات الأمريكية، كما يجب على الولايات المتحدة أن توقف جميع المساعدات العسكرية لإسرائيل، وألا تكون طرفاً في عملية التشاور،

يجب على الأمم المتحدة والجامعة العربية أن تحلا الأزمة بالمشاركة مع كل اللاعبين، ومنهم حركة حماس والجهاد الإسلامي ومنظمة فتح والحركات الأخرى، وليس فقط مع ما يسمى السلطة الفلسطينية، ويبرز هنا المثال جنوب الإفريقي، فمن دون التعامل مع الكونغرس الوطني الإفريقي، كان يمكن أن يكون هناك انتقال سلمي في جنوب إفريقيا، وأي شيء آخر كان يمكن أن يصبح شيئاً هزلياً مثل خريطة الطريق الأمريكية الحالية، حيث تقود كل الطرق من تل أبيب أو واشنطن وإليهما، يجب إرضاء الأطراف المعارضة لإسرائيل بمفهوم الدولتين التوءمين لإسرائيل وفلسطين، إضافة إلى مجلس وزراء مشترك مؤقت، مهمته الإشراف على أمور التسوية وقضايا أخرى، ومسلح برؤية تنوي إقامة أسس اقتصادية متينة وأسس أخرى متبادلة بين الطرفين، يجب إقرار أن إخفاق إسرائيل في وقف احتلالها وهجماتها غير المشروعة على الفلسطينيين سوف يواجه عواقب جدية، تحدد بوضوح، وتتضمن استخدام القوة العسكرية والاحتلال، وإعادة تقييم سيادة إسرائيل المستقلة، التي لم تكن حقيقة تاريخية في الواقع، لكنها كانت وليدة هيئة دولية في ذلك الوقت، وجدير بالملاحظة أن إقامة دولة يهودية ليس ممكناً، خاصة مع عدّ أن المسيحيين لهم الحق نفسه في هذه الأراضي مثل المسلمين تماماً، لكن عوضاً من استخدام القواعد القديمة، من الممكن تقديم حلول جديدة، ومنح جميع الأطراف الحق في المشاركة والتغيير، إن حق اللاجئين في العودة غير قابل للتغيير، وقد حان الوقت لأن تقوم الأمم المتحدة أو هيئة دولية جديدة ومطورة بأن تطبق هذا الحق، ربما نحتاج أولاً إلى أن نشكل هيئة دولية جديدة.

إذا لم يكن هناك أي تقسيم عادل ومنطقي للأراضي، أو أي حق للاجئين في العودة، فالحل الوحيد إذاً هو القيام بالنقيض بوساطة منظمة أممٍ متحدةٍ جديدة ومطورة، تلغي القرار الذي أقام «دولة

إسرائيل»، لم يخلق اللـه سبحانه دولة إسرائيل، وعندها يكون حل الدولة الوحيدة هو الحقيقة الوحيدة والبديل الوحيد، ولن يكون هناك مشكلة في حماية مخاوف الإسرائيليين، فهناك طرق دستورية لهذا الأمر.

هل سينتج نصر ديمقراطي ممكن في الانتخابات الرئاسية الأمريكية المقبلة نسخة فصيحة عن بوش؟، هل سيقوم أوباما بتغييرات شاملة؟، حتى لو كان هذا التغيير معنياً فقط بسعادة المواطن الأمريكي، فالنتيجة النهائية سوف تكون للمصلحة العامة.

لكن معاداة الرئيس أوباما لحركة حماس تجعل المرء يتساءل عن قيمة التغيير لدى أوباما وعن إنسانيته، لكنه يعلم أن التغيير في السياسة الخارجية الأمريكية ضروري، لقد أعلن في أيار عام 2008م أن سياسته الانتخابية ترتكز على «الأمل»، وليس «الخوف».

لكن موقف أوباما يتعارض مع تقييمه للمشكلة الفلسطينية، سواء كان أوباما يسعى إلى إرضاء الأصوات اليهودية، أم الأمريكية البيضاء، أم لا، يمكن عدّ أوباما على أي حال ساذجاً وشبيهاً ببوش، عندما يصرح بأنه لن يتعامل مع حماس، التي يعدها منظمة إرهابية، ناسياً في الوقت نفسه أن حماس تدعمها أصوات الأكثرية الساحقة من الشعب الفلسطيني، وهكذا فهو يرفض التعامل مع الأكثرية الساحقة من الفلسطينيين، ربما لم يطّلع أوباما على الخيار جنوب الإفريقي، عندما تعاملت حكومة التمييز العنصري البيضاء مع الكونغرس الوطني الإفريقي، لأنها تعاملت مع الحقائق، ربما يحتاج أوباما إلى بعض الدروس من نيلسون مانديلا، إن أوباما وهيلاري كلينتون يسعيان إلى إرضاء الصهيونيين، ولا يبدو أن الديمقراطيين في عام 2008م سوف يظهرون أي تغيير، تسعى شعوب العالم أجمع إلى الإيمان به.

إذا استطاع أوباما، بعد أن نجح في الانتخابات الأمريكية، أن يجعل الولايات المتحدة تتراجع عن جرائم الحرب والعدوان، عندئذ لن أعارض

أنه قام بهذا بسبب الخوف، لكنه أطلق عليها الأمل، الحقيقة هناك أمل في التوبة والإصلاح، حتى لو كان العمل نتيجة الخوف من نار جهنم، نحن لا نريد أن يحب الرئيس الأمريكي شعوب المسلمين، سوف نكون سعداء جداً، إذا توقف عن قتلهم والاعتداء عليهم.

يدّعي الجمهوريون أنهم يملكون سياسة واستراتيجية دولية قوية، يجب على السيناتور مكاين، وكان المرشح الجمهوري للرئاسة الأمريكية، أن يدرك أنّ غزو الدول ليس سياسة قوية، إذا قامت الدول العربية مثلاً بتشكيل معاهدات دفاعية مشتركة، فسوف تكون الولايات المتحدة مع ذلك قادرة على قصف أراضيهم وجيوشهم، لكنها لن تكون قادرة أبداً على احتلال هذه المناطق أو زرع الحكومات الموالية لها، وتعد العراق وأفغانستان برهاناً على ذلك، فلا يمكن مئتين وخمسين ألفاً من القوات الغازية، إضافة إلى دعم قوامه خمسة وعشرون ألفاً من الجنود، السيطرة على بغداد، ناهيك بالعراق كله، لقد أخذت الولايات المتحدة تتوسل من أجل مزيد من القوات الدولية، ما حجم القوات المحتلة الضروري لاحتلال الشرق الأوسط كله؟، إن الولايات المتحدة غير قادرة على إخراج النفط من العراق، إذاً كيف لها أن تخرج النفط من الشرق الأوسط كله؟، كيف ستكون قادرة على تحمل كلفة هذه الحرب؟، وكيف ستكون ثورة المسلمين على أمريكا في أصقاع العالم؟، كم من الأمريكيين وحلفائهم سيموتون؟، يحذّر القرآن الكريم حيث يقول:

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللـه مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ {18/8} إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللـه مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، (سورة الأنفال، الآيات 18-19).

نحن نسمع كثيراً حجة الولايات المتحدة وبريطانيا في أنهما لن تستطيعا الانسحاب من تلك المغامرة الدولية، لأنهما تواجهان الهجوم

والاعتداء من المقاتلين، هذا كذب ومقدمة زائفة واستنتاج كاذب، حالما توقف الولايات المتحدة وبريطانيا مغامراتها الاستعمارية وبرامجها ضد الإسلام، وحالما يقوم الغرب بتحرير أموال المسلمين المجمدة، سوف تكتشف مجدداً الولايات المتحدة وتحالفها مدى التجانس العالمي وحقيقته.

لا تسببوا المشكلة، ومن ثم تشتكوا وتحوكوا الدعايات الكاذبة، حتى تكون العواقب في الحقيقة أصل المشكلة.

يجب على الغربيين فهم أنّ القرآن الكريم يضمن عدم حدوث أي ردٍّ يقوم به المسلمون، إذا توقف المعتدي عن عدوانه:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللـه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾، (سورة المائدة، الآية 45).

لا يؤثر ما ذكر هنا إطلاقاً في حكم اللـه سبحانه وتعالى، أو القرارات التي تتخذها المحاكم، لكنه يشير فعلاً إلى أن المواطن المسلم العادي أو المسلح مثلاً يجب أن يتراجع، ويعترف بحقيقة أن العدوان قد توقف:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللـه بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، (سورة البقرة، الآية 193).

من الواضح جداً أن القرآن الكريم يأمر بتوقف القتال حالما انتهت الاعتداءات، سوف يكون على الاستشهاديين أو «الانتحاريين» والهجمات من جميع الأطراف أن تتوقف، إنّ هذه النتائج ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأوامر القرآنية.

والقرآن الكريم واضح أيضاً على السواء فيما يتعلق بمغفرة المعتدي:

﴿ فإِنَّ اللـه غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، (سورة البقرة، الآية 192).

إذاً إنها إرادة الشعبين الأمريكي والبريطاني، التي تساعد على قلب مدّ الاعتداء هذا، مدركين تماماً في الوقت نفسه أنه على خلاف شعوب العالم أجمع، فإن المسلمين تحكمهم قواعد وأسس غير مسبوقة للسلوك البشري، وأن القرآن الكريم يحمي شعوب الأرض كافة، إنّ المتشددين الذين يُعدون كابوس التحالف الحالي يلتزمون مبادئ الدين، ويطيعون أوامر القرآن الكريم وإرشاداته، ليس هناك أي كفالة أفضل.

إنّ التغيير العملي لسياسات الغزو والقتل والفوضى غير المقبولة لن يعد استسلاماً للعدو، لكنها سوف تشكّل وقفاً للأعمال العدوانية الغربية غير المسوغة، وسوف تساهم في وقف المقاومة في الوقت نفسه.

على المؤمنين المحبّين للسلام أن ينشروا ثقافة الخير عوضاً من ثقافة الشر، ويجب على تلك الثقافة أن تصل بطريقة أو بأخرى إلى قادة دولهم عبر الصناديق الانتخابية، ومن جميع الطرق والمنافذ المشروعة، مستخدمين العمليات الديمقراطية نفسها، التي تختفي بسرعة في الولايات المتحدة مثلاً، عندما تظهر القوانين التي تسمى «القوانين الوطنية»، والتي تطبق على الأمريكيين، وقوانين مكافحة الإرهاب المشكوك فيها، والتي تدافع عنها الولايات المتحدة، لكي يجري تطبيقها دولياً.

إنّ الضغط المكثف، الذي يقوم به شعوب العالم من أجل السياسات الدولية والوطنية الإنسانية، هو فقط الذي يستطيع إيقاف المد الديكتاتوري، وتجنب المواجهات العنيفة بين الأطراف العلمانية الشريرة والأطراف المؤمنة الأخلاقية.

يضمن القرآن الكريم الخير للعالم أجمع حالما توقف الحرب بكل وأنماطها ضد المسلمين، ومنها احتلال أراضيهم بالإخضاع وزرع الأنظمة الحاكمة العميلة.

إنّ القرآن الكريم هو المصدر النهائي للتشريع والنظام الإسلامي، وهو الكفالة الوحيدة والكاملة في حال تراجع الغرب عن حربه ضد

المسلمين وتبني المعايير الأخلاقية، وهكذا فلن يمكن أي مسلم الهجوم على الغرب من دون أن يثير غضب المؤمنين، ناهيك بالمهاجمة المشروعة للمجتمع الدولي حينذاك.

وبكلمات مختصرة يمكن الغرب والتحالف والمعتدين أن يتراجعوا فوراً من دون أن يكون هناك أي رد انتقامي وفقاً للأحكام التي وضعها القرآن الكريم وذكرها في هذا الشأن.

إنّ الدين نفسه، الذي يسعى الغرب إلى تدميره، يعِدُ بالسلام، يستطيع قادة الدول ورؤساء الوزراء أن يحملوا النيات الطيبة عوضاً من النيات الشريرة، فهم لن يخلدوا في هذه الدنيا، وقابلون للخطأ وإطلاق الأحكام الخاطئة، وهم دائماً معرضون، لأن يُزوّدوا بمعلومات استخباراتية فاسدة، يجب عليهم أن ينتبهوا إلى أنفسهم في دولهم، لئلا يصبحوا قطع شطرنج، تلعب بها الجماعات القوية وذات النفوذ الكبير، يجب عليهم أن ينظروا إلى عائلاتهم وأقربائهم قبل أن يشنوا الحروب على الآخرين، إنهم لا يستطيعون الاختباء وراء كلمات طنانة مثل «الضرر الجماعي»، والتي تجردهم من إحساسهم بالذنب، يجب عليهم، إن كانوا غير مؤمنين، أن يبحثوا عن المساعدة والعناية النفسية والعقلية، يجب عليهم أن يقبلوا النصوص الدينية بتواضع، لن تحرق هذه النصوص أيديهم أو أعينهم، لكن من الممكن فعلاً أن تذيب قلوبهم من التأثر، يجب على أولئك القادة أن يبحثوا عن المشاهد التلفزيونية الحقيقية للعمليات العسكرية الدامية والأضرار الجسيمة التي تخلّفها، يجب عليهم أن يلصقوا صور الأطفال والجنود المشوهين على جدران مكاتبهم، ليدركوا حجم كوارث قراراتهم وأعمالهم، يجب عليهم أن يبحثوا عن الحقيقة المنطقية، ويدلوا باعترافات متواضعة، لقد اعترف جورج بوش يوماً باستهتار أيام شبابه، ولم يؤثر هذا الاعتراف فيه سلباً، لكنها في الحقيقة ساعدته على كسب الرئاسة، وإذا أراد أن يتراجع كلياً

عن رغبته في الحرب، فمن الممكن جداً أن يصبح رجلاً محترماً، عندها سوف يمكنه أن يلقي خطابات في العالم أجمع، وهو محاط بجمع غفير من الداعمين، لا تكمن عظمة الأمر في أن يصبح الرجل رئيس الولايات المتحدة فقط، لكن أن يصبح الرئيس الأمريكي محبوباً من الجميع، فهذا أمر كبير.

سيادة الرئيس، علينا أن نعلن: دع الشعوب العاديّة مثلنا تجتمع معك، دعنا نحن، أعضاء المجتمع الدولي، نشترك في الآراء معك، إن العالم أكبر من مكتب الرئاسة الأمريكية البيضاوي وأكبر من الولايات المتحدة، فمثلاً عندما تصل الهند وباكستان إلى مرحلة المواجهة، فكل دولة تضع نصف مليون جندي على حدودها فقط، (من الجيد أن تكون هاتان الدولتان صديقتين، فلا تريد أي دولة في العالم أن تكون تلك الدولتان عدوة لها)، انظر سيادة الرئيس إلى تعداد سكان العالم، انظر إلى خريطة العالم، ليست الولايات المتحدة كبيرة على هذا القدر على إطلاقاً، ومن الأفضل لنا مثلاً أن نشتري أسهماً في شركة كوكا كولا عوضاً من الاستثمار في الطائرات الحربية، قم بقيادة حركة السلام، وسوف نقلدك أوسمة، ونمنحك جوائز أرفع من جائزة نوبل على نحو مؤكد.

ليس قادة الدول ورؤساء الوزراء أنصاف آلهة، إنهم بشر فانون ببساطة، لكنهم يمتلكون نفوذاً سياسياً وعسكرياً، وهكذا يمكنهم أن يصبحوا بتأثير هذا النفوذ أشراراً أو أخياراً.

يكمن خيار القيادة في العالم الديمقراطي في أيدي الشعب، والفرد مسؤول عن القيادة التي يختارها، وعندما تسبب هذه القيادة القتل والفوضى، وتستخدم القوة المفرطة وغير المميزة، وتخرق الأخلاق الدولية، وتتصرف كأنها شيطان العصر، عندها يكون المواطن منا شريكاً في هذه الجرائم والخطايا المميتة، إذا كنت مؤمناً بيوم الآخرة،

فروحك في خطر، وإذا لم تكن مؤمناً به، فروحك مازالت في خطر، وسواء آمنا بوجود الجبال أم لا، فهذه الجبال سوف تقف بكل شموخ وعظمة على أي حال، إذا قررنا أن يوم القيامة ليس حقيقة، فإن آراءنا لا تتمنى هذا اليوم على أي حال أيضاً، ويظهر القرآن الكريم هذا الواقع على مر التاريخ، فهو يذكر الأمم التي أخفقت في الإيمان بوجود اللـه سبحانه، والتي دفعت ثمناً غالياً نتيجة لهذا العناد، دع غير المؤمنين يواجهون أمراً بسيطاً: ماذا لو كنتم مخطئين؟.

لابدّ أن العدالة ستتحقق لجميع شعوب العالم، لا يمكن العدالة أن تقاس بمصالح الغرب أو الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل، لاحظ جيداً أن مقدمة الدستور الأمريكي، كما الحال للديمقراطيات الأخرى، تنحصر فقط في وطنية ضيقة، وكأن البشر الوحيدين على هذا الكوكب، الذين يجب الاهتمام بهم، هم أولئك الذين يعيشون في منطقة جغرافية معينة.

وهانحن نسرد مقدمة الدستور الأمريكي، كما يلي:

«نحن شعب الولايات المتحدة، لكي نؤلف اتحاداً أكثر رسوخاً، ولكي نقيم العدالة، ونضمن الاستقرار الداخلي، ونضع أسس الدفاع المشترك، ونزيد الرفاهية العامة، ونصون نعمة الحرية لأنفسنا وللأجيال القادمة، نضع هذا الدستور للولايات المتحدة الأمريكية».

إنّ السعي هو لمصلحة الخير العام للشعب الأمريكي، وخاصة «صون نعمة الحرية لأنفسهم وللأجيال القادمة»، لابدّ أن هذه الوطنية الديمقراطية ضيقة وأنانية ومحصورة، أليس كذلك؟.

إن لم تكن هذه القضية مسألة أخلاقية بسيطة، إذاً فإقرأ تلك الآيات من القرآن الكريم، التي تحمل معها تحذيراً خطيراً:

﴿ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ {7/55} أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ {8/55} وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾، (سورة الرحمن، الآيات 7-8-9).

يؤكد القرآن الكريم هذه العدالة، لأن خلق الكون كاملاً هو في حالة من التوازن، وهكذا يتوقع من البشر أن يخلقوا حالة من التوازن في علاقاتهم مع ببعضهم، وحيث هنالك توازن طبيعي في الأنظمة البيئية للطبيعة، يجب على البشر أن يحافظوا على توازن مماثل، يجب تجنب ارتكاب المخالفات، لأنها تسبب خللاً في التوازن، ليست العدالة فضيلة، وحسب، لكنها عنصر أساسي لتجنب الخلل، لئلا نخلط المصلحة الشخصية بالانحياز، ما يسمح بثقل غير صحيح يفضّل الإجحاف، وهذا ما يقود إلى فقدان التجانس والصراعات والحروب.

يجب ملاحظة أن هذا التوازن ليس شيئاً يجري التباحث فيه، أو توازناً يمكن التباحث في شأنه وإرجاءه أو إنكاره، إنه توازن واجب، وأي واحد منا ملزم تلبيته، وهو أيضاً التزام لا يمكن التفاوض عليه وغير مشكوك فيه، لأنه متصل ومتعلق بحالة التوازن الكونية وتوازن المجتمع الإنساني، وأي تردد أو تجاهل أو رفض لهذا الأمر هو خرق للعدالة.

سوف تبقى العدالة شرطاً استباقياً أساسياً من أجل تحقيق التعايش الإنساني، ويمكن الاعتماد والتعايش المدني والإنساني المتبادل أن يتحقق فقط خلال مبدأ العدالة العالمية، الذي يتضمن منطقياً جميع شعوب الأرض بغض النظر عن الحدود الوطنية، إنّ الإنصاف الدولي، الذي يجمع كل مصالح شعوب العالم ضروري من أجل تحقيق العدالة.

وسواء كان المرء مسلماً أم لا، أليست الآية القرآنية الأخيرة المذكورة سابقاً أقوى عرض لمعنى العدالة؟، عندما يحب المرء جاره مثلما يحب نفسه، فهو يحافظ على التوازن، ويضيف ثقلاً لمبدأ العدالة، وعندما يعامل المرء الآخرين، كما يحب أن يعامله الآخرون، فهو طبعاً يحافظ على

التوازن، ويضيف ثقلاً لإلى مبدأ العدالة، يجب على المسيحيين أن يتفكروا في عامل التوازن هذا، وكيف يتفق مع المبادئ ذاتها للعقيدة المسيحية.

يجب على جميع القادة أن يفعلوا الأمر ذاته، وعندها سوف نشهد تحسن العلاقات على المستوى الدولي، لن نخسر شيئاً، لأن العدالة في ثقلها يمكن تطبيقها على جميع الأطراف، لن نخسر شيئاً، بل سوف نحظى بالعدالة والإنصاف.

ولاشكّ في أن التحذير القرآني متصل بهذه القضية، وهو يقضي بعدم التهاون في مسألة تحقيق التوازن، فهذا التحذير ليس مطلباً أو نصيحة فقط، لكنه أمر مباشر ومبدأ أو قاعدة واضحة.

لكن الغرب على أي حال يحضّ على ثقافة «الشقاق»، وينشرها في كل الأنماط:

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، (سورة ص، الآية 2).

إنّ هذه العزة تشبه تعجرف القادة الغربيين، الذين يستمتعون بالعظمة، التي نسبوها إلى أنفسهم، وهم في الوقت ذاته يسعون إلى تحقيق مصلحة مجموعة مختارة قليلة، أو المصالح الوطنية للدولة في أفضل الأحوال وأوسعها، وإنّ غزواتهم في العالم هي فقط لإرضاء مصالح هذه المجموعة المختارة، وهذا الدافع تماماً هو الذي يتعارض مع المصلحة المشتركة لبني البشرية، إنّ الجهود المتضافرة لتحسين أوضاع شعوب العالم لا تمتّ بأي صلة ببرامج وخطط دول العالم الأول، ومعروف أن التقدم والتطور اللذين وصلت إليهما دول «العالم الأول» قد بني على حساب دول «العالم الثاني والثالث» وأكتافهما.

هذه القضية كلها تدعو إلى إعلان نيات يجب على محبي السلام أن يتبنوه، وأن يكون هناك حرب من أجل السلام ضد الاختلال في ميزان

العدالة، وأن يجري السعي إلى الحفاظ على توازن يبقي العالم بعيداً عن أي فوضى اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية.

سيكون على محبي السلام أن يعلنوا:

([3]*لأَنَّنَا وَإِنْ كُنَّا نَسْلُكُ فِي الْجَسَدِ، لَسْنَا حَسَبَ الْجَسَدِ نُحَارِبُ. [4]*إِذْ أَسْلِحَةُ مُحَارَبَتِنَا لَيْسَتْ جَسَدِيَّةً، بَلْ قَادِرَةٌ بِاللـه عَلَى هَدْمِ حُصُونٍ. [5]*هَادِمِينَ ظُنُوناً وَكُلَّ عُلْوٍ يَرْتَفِعُ ضِدَّ مَعْرِفَةِ اللـه، وَمُسْتَأْسِرِينَ كُلَّ فِكْرٍ إِلَى طَاعَةِ الْمَسِيحِ) - رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثه 10: 3- 5.

يجب على المسيحيين أن يتفكروا في فوائد وعود المسيح، وأن يتذكروا جيداً أنّه:

([9]*طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللـه يُدْعَوْنَ) . متى 5: 9.

الفصل الثامن

تماماً مثلما كتب الـلـه سبحانه وتعالى الفصول المعترضة في حياة الشعوب المغرورة والمتعجرفة، فلا شك في أنه سوف يكتب أيضاً الفصل الأخير.

لو اتخذ قادة الدول خطوة إلى الأمام على طريق التصالح الدولي مع المؤمنين، فسوف يمنحهم الـلـه سبحانه الوقت والإلهام، لكي يكتبوا فصولاً جديدة من التاريخ، لا تُمجّد فيها العدالة الحقيقية والتجانس الدولي وحسب، لكنها تطبق أيضاً على نحو عملي ومنظور.

لقد شهدتم في هذا الكتاب كيف تحصل الأحداث العالمية المعاصرة بالطريقة نفسها التي وصفتها آيات القرآن الكريم، وليس هذا الشيء توقعاً أو نبوءة، لكنه إشارة إلى أن أعمال الاعتداء والتخريب المرتكبة بحق المؤمنين سوف تواجه بمقاومة منهم، وسوف يتدخل الـلـه سبحانه لمساعدتهم بالطريقة نفسها التي تدخل بها في الماضي، وهو أيضاً إشارة إلى كيفية تدخل الـلـه سبحانه وتعالى في وقتنا الحاضر وفي المستقبل، إنّ اضطهاد المؤمنين، الذي نراه حالياً، ليس بشيء جديد، ومعارضة الدين والإيمان بالـلـه ليست جديد أيضاً، لقد سبق تاريخ الشعوب والأمم المتكبرة الوضع الدولي الحالي وحسب.

وإذا كنتم تتفقون أو تعارضون بشدة محتوى هذا الكتاب، أو كنتم تتفقون جزئياً معه، أو حتى إذا لم تتأثروا به من الناحية الفكرية إطلاقاً، فإنني أطلب منكم أن تأخذوا معكم، وتحفظوا في عقولكم، وتخاطبوا في قلوبكم محتوى الآيات نفسها، التي يُفتتح بها القرآن الكريم: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {2/1} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ {3/1} مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ {4/1} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {5/1} اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {6/1} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾، (سورة الفاتحة).

سواء إذا التزمتم الطريق الإلهي أم لا، وسواء إذا آمنتم بيوم القيامة أم لا، وسواء إذا كنتم تخافون من «مالك يوم الدين» أم لا، فلن تجدوا أبداً حقيقةً أكثر بساطة أو إرشاداً أفضل من الذي سبق ذكره في القرآن الكريم من أجل إحلال الخير الشامل.

ومع ذلك، إذا كان تفكيركم العقلاني مترافقاً مع الإيمان بالـلـه سبحانه، فلا شك في أن الرحلة سوف تكون سهلة.

﴿ وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا الـلـه وَأَطِيعُونِ {63/43} إِنَّ الـلـه هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، (سورة الزخرف، الآيات 63-64).

لقد أعلن المسيح عليه السلام عن المبدأ العالمي: «أحبَّ جارك، كما تحب نفسك، وعامل الآخرين، كما تحبهم أن يعاملوك»، لكن من الواضح أن معنى الإنصاف والعدالة المتصل بما قلناه سابقاً قد نسيه العالم المتحضر، أو تجاهله على نحو مقصود.

إنّ القرآن الكريم هو برنامج عمل من أجل تحقيق الإنصاف على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وخلال توضيح قواعد الانخراط الاجتماعي يعالج القرآن الكريم تفاصيل مثل واجب العناية بالأيتام والأرامل والزوجات والجيران، وقواعد المعاملات التجارية والاقتصادية، وقوانين الوراثة، وعقوبات الأعمال الإجرامية ومعنى العدالة نفسه، وذلك لكي يساعد على التأثير الإيجابي في عقلية القارئ العادي، ناهيك بالقارئ المتمعن والدارس للقرآن الكريم، يجب على كل قارئ، إذا كان ينوي القيادة بطريقة أخلاقية، أن يركز على تطوير عقلية تحرره من المصالح الشخصية والجماعية، يجب عليه أن يبحث عن الخير الاجتماعي للجميع من دون استثناء، وإذا كان القارئ علمانياً،

فعليه أن يفهم جوهر الأخلاق والفضيلة العالمية، وبفعل ذلك سوف يكون عليه دخول مجال الأخلاقية الدينية أيضاً، يجب عليه أن يدرك بمنطق أن الدين ليس شيئاً كشعاع شمس في الضباب، كلا المسيحية والإسلام ترى أن هنالك إلهاً يأمر، باحترامه وتنفيذ إرادته على هذه الأرض، وهذه الإرادة تأمرنا أن نتعامل بعدالة مع بعضنا.

لقد زودنا المسيح عليه السلام بالمبادئ العامة، ويسهب القرآن الكريم أكثر في قيامه بترتيب القواعد التي تتلاءم مع التفاصيل التي تتوافق مع أسس القانون النابعة من تلك التفاصيل ووضعها، لذلك، يجب على أي قائد علماني ألا يخفق في أن يستفيد على نحو كامل من القرآن الكريم، وهذه الاستفادة الكاملة تتمثل في التذكير المتكرر في آيات القرآن الكريم، التي تشبه النبضات الإيقاعية، ما يجبرنا في كل لحظة على معرفة القيام بما هو صحيح، وأنه يجب ألا يكون هناك تردد في التزام ما هو صحيح، وأن توازن العدالة ضروري لتحقيق التجانس الاجتماعي، وهذا يتوافق مع العقل، ويدفع الضمير الإنساني إلى الاستخدام الملائم للإرادة الحرة، لكن في الدرس الأخير يسمح للمرء بالسيطرة الحرة على نفسه على نحو قاطع، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾، ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾، ليس المرء مجبراً على شيء، لكن هناك تعريف واضح وصريح للإخلاص والوفاء اللذين سوف يظهرهما المرء، سواء كان لنفسه وللأصدقاء ذوي النفوذ، أم للأمة التي يتبع لها، إن عقل المرء هو ملكه يقرره، لكن من دون أي نفاق، يجب على الواحد منا أن يفهم الأخلاق، ومن ثمّ يختار أن يصبح أخلاقياً أم لا، وأن يسعى إلى تحقيق الرضا والغرور الذاتي بالمناورات السياسية أو العمل لمصلحة البشرية جمعاء.

ومع ذلك، إذا قيّم الواحد منا موقفه، واختار أن يخالف الحق والأخلاق، فهو يعرض نفسه للدمار، الذي وعده القرآن الكريم.

يجب على قادة العالم أن يختاروا التزام المعايير الأخلاقية السوية المترافقة مع صفات الفضيلة والرحمة، مقدّرين ومحافظين في الوقت نفسه على الحياة البشرية من دون الانحراف عن هذا الطريق ومن دون شهوة الاضطهاد، حتى تتصف قيادتهم بالرحمة ذاتها.

لكن القائد الذي يختار أن يصبح جنرالاً للحرب، تحمله دبابات القتل والتدمير عليه أن يتذكر ما يلي:

(8*هَلُمُّوا انْظُرُوا أَعْمَالَ اللـه كَيْفَ جَعَلَ خِرَباً فِي الأَرْضِ.9*مُسَكِّنُ الْحُرُوبِ إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ. يَكْسِرُ الْقَوْسَ وَيَقْطَعُ الرُّمْحَ. الْمَرْكَبَاتِ يُحْرِقُهَا بِالنَّارِ. 10*كُفُّوا وَاعْلَمُوا أَنِّي أَنَا اللـه. أَتَعَالَى بَيْنَ الأُمَمِ. أَتَعَالَى فِي الأَرْضِ). المزمور 46: 8- 10.

خاتمة

تشرين الأول عام 2008م

إذا كنت عزيزي القارئ في شكٍ من وعود القرآن الكريم، وكان لديك القليل من التهكم بما كتبته، فتذكر الآن انهيار وول ستريت الاقتصادي، وانهيار البنوك في الولايات المتحدة.

أعد قراءة الفصل الأول من الكتاب، وتذكر مرة أخرى الآيات التالية من القرآن الكريم التي أقتبسها هنا للإفادة:

في سورة الكهف (من الآية 32 إلى الآية 45) نقرأ حكايةً عن رجلين، فرجل أعطاه اللـه حدائق العنب والتمر والنخيل وحقول الذرة ونهراً، والآخر لم يمتلك القدر نفسه، وقد أثمرت حدائق الأول بوفرة:

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا {34/18}

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ، **(سورة الكهف، الآيات 34-35).**

لكن الرجل الثاني، الذي لم يمتلك كثيراً، قال:

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ، **(سورة الكهف، الآية 40).**

وهذا ما حدث، فقد وقعت الكارثة على الرجل الأول، الذي كان غنياً ومتكبراً:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا {42/18} وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللـه وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾، **(سورة الكهف، الآيات 42-43).**

في الوقت الذي يواجه فيه الرئيس الأمريكي الجديد اضطرابات ومشكلات شتى، يبدو أن الدروس المستقاة من القرآن الكريم ينبغي لها أن تُفهَم، على باراك أوباما أن يتعلم أن الانسحاب من العراق للتركيز على الجهود العسكرية في أفغانستان، كما ينوي، لا يشكل تغييراً في السياسة الخارجية، لكنه فقط تغيير في الأولويات، أو هو محاولة لإنقاذ سفينة غارقة واحدة على الأقل.

ربما يجب على أوباما أن يسعى إلى الحكمة المأخوذة من القرآن الكريم، لأنه عندها سوف يفهم أن التغيير الحقيقي في سياسة أمريكا الخارجية سيتضمن الكف عن السعي لغزو الدول الأجنبية حربياً، أو بالإخضاع الاقتصادي، إذا كان يريد أن يدرس العدالة والإنصاف المتجسد في الإسلام والمسيحية، فسوف يؤثر كلاهما في روحه، وعندها سيستطيع أن يقود دفة الولايات المتحدة إلى مسار الأخلاق والفضيلة، لاشك في أنه عندها سيصبح رجلاً عظيماً.

إنّ القرآن الكريم تنبُّئِي، فهو يمنحنا الفطنة في إرادة الـلـه سبحانه وتعالى ووعده، كما يفتح الكتاب المقدس الباب على مصراعيه، واصفاً مستقبلنا بصور غنية ومتنوعة ورؤى متعددة الأبعاد فيما يتعلق بما يريده الـلـه سبحانه، أو ينهى عنه، حيث نرى في النهاية أدلة واضحة على عظمة جبروته، وسوف يقرر الـلـه سبحانه وتعالى في النهاية مصير المعتدين، ولن تنجح أي حرب على الـلـه يشنها عليه أي إنسان أو أمة، ولن يحمل أي هجوم على المؤمنين ثمار النجاح أبداً.

جنوب إفريقيا، كانون الأول 2008م.

أرشي أوغسطين


@Ahmedyassin90

أنا روماني كاثوليكي، وأعمل كمحام في محكمة الجنايات في جنوب إفريقيا، عندما جرى احتلال أفغانستان، وبدأ غزو العراق، إضافة إلى ما تقوم به إسرائيل ضد الفلسطينيين، قمت بقراءة متمعنة لنص القرآن الكريم، لأني أردت أن أعرف فيما إذا كان الإسلام سوف يواجه مصير المسيحية نفسه أم لا، فاكتشفت أنه من السهل ربط الآيات القرآنية بالوضع العالمي الراهن، وأكثر من هذا، فهم المستقبل، بعد تدمير برجي التجارة العالمية بدأت الولايات المتحدة حربها على «الإرهاب»، ويدّعي بعضهم أنها كانت محتاجة إلى ذريعة لتحقيق مغامراتها ضد ما سمّي «الإرهاب الإسلامي»، ولا أظن أن هذه الكذبة كانت ضرورية لكسب تأييد الشعب الأمريكي، أو الحصول على الدعم الدولي، فبغضّ النظر عن الأمم المتحدة، والرأي العام نفّذت القوات الأمريكية والبريطانية ما يحلو لها، قُصف المسلمون، وقُتلوا واحتلّت أراضيهم، وأصبحت الديمقراطيات المصممة على النمط الغربي هي الممكنة، لذا كان على العادات والمبادئ الإسلامية أن تلغى - ومن ثم فأي مقاومة للمعايير الجديدة سوف تعد «إرهاباً»، فالحرب ضد المسلمين ليست فقط حرباً ضد شخص المسلم أو ممتلكاته، لكنها حربٌ ضد معتقده وإيمانه. ولذلك فإنّ «اغتيال الإسلام»، هو البرنامج.

وأنا مقتنع تماماً بأن هزيمة الإسلام غير ممكنة أبداً، ولن تقنع أي دعاية غربية المسيحيين المخلصين بأن الحرب ضد الإسلام مسوغة، والتزاماً بمصداقيتي الاحترافية وديني المسيحي، فإني لا أعتذر عن الكتابة بكل صراحة، لأن الحقيقة ليست مؤذية، بل على خلاف ذلك يمكنها أن تشفي.

تصوير

أحمد ياسين





صفحات للدراسات والنشر

www.darsafahat.com



ISBN 978-9933402662

جميع كتبنا متوفرة لدى

نيل وفرات.كوم

www.neelwafurat.com



دار النوار



دار الزمان

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح